رسائل الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود

(١)

الإيمان بالقضاء والقدر

ومسائل أخرى في العقيدة

تأليف

الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية

بدولة قطر

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالقضاء والقدر

ومسائل أخرى في العقيدة

الطبعة الثانية

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

عقيدة الإسلام والمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام دين الفطرة السليمة والطريقة المستقيمة يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم فهو الدين الذي إرتضاه الله لجميع الأمم.

يقول الله سبحانه: ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾[1] وقال: ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[2] وقال: ﴿ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾[3] وهو دين سائر الأنبياء أولهم نوح وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام. يقول الله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك (أي

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٣) سورة المائدة: آية ٣.

يا محمد) وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[1] غير أن شرائع الأنبياء تختلف. يقول الله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾[2] وقد جاءت شريعة محمد رسول الله مهيمنة وحاكمة على جميع الشرائع قبلها لأن الله أرسله إلى كافة الناس ليظهره على الدين كله. ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3] وقال: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[4] فلا يجوز لأحد أن يعمل أو يحكم بغير شريعته. ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قطعة من التوراة قال له: «يا عمر لقد جئتكم بها بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ولو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي».

وهو دين اعتقاد وقول وعمل فلا إسلام بدون

---

(١) سورة الشورى: آية ١٣.
(٢) سورة المائدة: آية ٤٨.
(٣) سورة الأعراف: آية ١٥٨.
(٤) سورة سبأ: آية ٢٨.

عمل. وقول النبي صلى الله عليه وسلم «ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» يشير إلى اعتقاد القلب لكون العقائد القلبية تنشأ عنها الأعمال البدنية صحة وفساداً فإذا صح الاعتقاد صلح العمل وإذا فسد الاعتقاد ساء العمل وساءت النتيجة وقد ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً رسولاً كما ثبت ذلك في الصحيح من حديث العباس بن عبدالمطلب. رضي الله عنه.

حكمة بعثة الرسل
(هو إفراد الله بالدعاء فلا يدعو مع الله أحداً)

إن الله سبحانه لم يبعث رسولاً إلاّ ويأمر قومه بأن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئاً. والعبادة أنواع منها الصلاة والزكاة والصيام وسائر الأوامر الدينية ومنها الدعاء فإن الدعاء عبادة وروى مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء عبادة» وقرأ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[1] ـ أي صاغرين حقيرين ذليلين ـ ورواه الترمذي بلفظ «الدعاء مخ العبادة» ومخ الشيء خالصه فمتى كان الدعاء عبادة فإن صرف الدعاء لغير الله شرك فالذين يدعون علياً أو يدعون ولياً أو عبدالقادر أو يدعون الرسول حين يقفون عند قبره ويقولون

---

(١) سورة غافر: آية ٦٠.

يا محمد إشفع لي عند ربك وأغثني كل هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه فإن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. يقول الله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾[1] فسماه الله ظالماً لكونه صرف هذه العبادة التي هي من خالص حق الله لغير الله وقال: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾[2]. وأخبر الله بأنه لا أضل – أي ولا أظلم ولا أجهل – ممن يدعو ميتاً ويسأله قضاء حاجاته وتفريج كرباته وهو مرهون في قبره بعمله لا يستطيع زيادة في حسنات نفسه ولا نقصاناً من سيئاته فقال: ﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[3] وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) سورة يونس: آية ١٠٦.
(٢) سورة الجن: آية ١٨.
(٣) سورة الأحقاف: آية ٥ و٦.

الذبح لغَير الله شِرك

إن الله سبحانه قد شرع الذبح له في القرب الدينية كذبح متعة الحج والقرآن والاحصار وعن ترك شيء من واجبات الحج أو فعل محظور أو ذبح الاضاحي والعقيقة والمنذورة لله فكل هذه تدخل في قسم العبادة لله رب العالمين ﴿إن صلاتي ونسكي ـ أي ذبيحتي ـ ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1].

فمتى كان الذبح عبادة لله رب العالمين فإن الذبح لغير الله شرك كالذبح للجن والذبح للزار والذبح للقبر ومثله الذين يذبحون للجن عندما يستجدون سكنى بيت ولا يسمون على ذبيحتهم فهذا كله من الشرك والذبيحة

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢ و١٦٣.

حرام لا يجوز أكلها سواء كانت صغيرة أو كبيرة لأنها مما أهل لغير الله.

وفي البخاري عن علي رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه لعن الله من آوى محدثاً لعن الله من غير منار الأرض» أي مراسيمها.

تعليق الحجُب والجامعات والحُروز وما يسمّونه العزيمة والتعويذة والتميمة كلّه شرك

إن هـذه الأسماء عبـارة عـما يعلق عـلى الأولاد والأجساد والدواب لدفع الجان وعين الانسان وهي من بقايا عمل الجاهلية الأولى إذا ولد لهم مولود علقوا عليه التميمة أي الجامعة لتقيه بزعمهم عن الجان وعن عين الانسان كما قال الشاعر:

بـلاد بهـا نيـطت عـلي تمـائمي
وأول أرض مس جلدي تـرابهـا

ومعنى نيطت أي علقت.

وقد تسربت هذه الفكرة الشركية إلى الهمج السذج من العوام وضعفة العقول والأفهام وقد أبطلها الاسلام وعدها من الشرك.

لأن هذا التعليق على اختلاف أنواعه هو مما يقتضي صرف القلب عن الله ويجعله متكلاً ومتعلقاً قلبه بهذا التعليق بحيث يشب عليه صغيراً ويهرم عليه كبيراً وقد يموت وهي معلقة على جسده فيعظم ضرره ويشتد خطره.

لما روى الامام أحمد بسند لا بأس به عن عمران بن حصين «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: ما هذه قال: من الواهنة فقال: إنزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً وإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً».

فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عنها لأنه اتخذها معتقداً بأنها تعصمه من الألم وهي ليست بدواء ولكنها داء.

وروى الامام أحمد عن عقبه بـن عامر أن النبي قال: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»وفي رواية «من تعلق تميمة فقد أشرك».

وهذا دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم على من تعلق تميمة أي جامعة أو حرزاً أو تعويذة يريد منها أن تقيه عن الآلام وعن الجان وعين الانسان قال فلا أتم الله له

أمره مما يرجوه ويؤمله من العافية والصحة وأكبر منه قوله: من تعلق تميمة فقد أشرك كما قال: ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له أي لا جعله في دعة وسكون بل جعله في قلق واضطراب. وعن عبدالله بن حكيم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تعلق شيئاً وكل إليه» وهذه الأحاديث تقتضي النهي عن كل معلق سواء كان من القرآن أو من غير القرآن فلا وجه لتخصيصه بغير تمائم القرآن، إذ لوكان فتيها نوع مباح لورد الدليل بإباحته كما ورد الدليل بإباحة الرقى ما لم تكن شركاً. ولهذا قال ابراهيم النخعي: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن» وعبر بالكراهة عن التحريم كما هي طريقة السلف السابقين وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطعها عن الدواب والأولاد لكونها تضر ولا تنفع وتضعف الايمان في القلب.

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة لكونه أنقذه من عبودية الشيطان.

والحاصل ان من تعلق شيئاً وكله الله إلى ذلك فيقع في قلق واضطراب وفنون من الأضرار والأمراض وداء الصرع وغيره.

ومن توكل على ربه والتجأ إليه وفوض أمره لله إليه كفاه الله كل شر ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

إن أكثر من يحسن للناس هذا التعليق ويعمل عمله في تنظيمه هم القوم الذين يتكسبون به على سبيل التغرير والخداع لضعفة العقول من العوام والنساء كما قيل:

أراد إحــراز مــال كيف أمكنــه
فــظل يكتب للنســوان إحــرازاً

أما الرقية بالآيات القرآنية والأدعية النبوية فـإنها مشروعة فقد رقي النبي صلى الله عليه وسلم ورقي وقال: لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً وقد نزلت المعوذتان أي: قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس للرقية بهما. وكان النبي ينفث بهما في كفيه ويمسح بهما ما استطاع من جسده ولما مرض كانت عائشة تفعل ذلـك به ولما اشتكى رسول الله رقاه جبريل فقال: «بسم الله أرقيك من كل شر يؤذيك من كل عين حاسد ومن كل شيطان مارد».

ولما رقي الصحابي اللديغ بفاتحة الكتاب قال رسول الله: «إنها رقية حق» واشترطوا لصحة الرقية بأن تكون

بالآيات القرآنية أو الأدعية النبوية وأن تكون بـاللسان العربي مع اعتقاد أن الله هو النافع الضار.

إذ الرقية محض أدعية والدعاء يدفـع شر البـلاء ويرفعه وتأثيرها يعود إلى قوة إيمان فاعلها والله أعلم.

حقيقة الاسلام

إن الاسلام هو هذا الدين السمح السهل الحسن ليس بحرج ولا إغلال ولا شاق ولا يقيد عقل مسلم عن الحضارة ولا التوسع في التجارة المباحة بل هو سلم النجاح وسبب الفلاح. رأسه الاسلام وعموده الصلاة وبقية أركانه الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام مـرة عند الاستطاعة وقد جعل الله هـذه الأركان بمثـابة البنيـان للاسلام بل هي أصل الاسلام لمن سئل عن الاسلام كما في سؤال جبريل حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد أخبرني عن الاسلام. فقال: «الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال: صدقت» رواه مسلم من حديث عمر ورواه البخاري من حديث أبي هريرة. وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بني الاسلام على خمس:

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان.

فهذه الأركان بما أنها البنيان للاسلام فإنها الفرقان بين المسلمين والكفار والمتقين والفجار وهي محك التمحيص لصحة الايمان بها يعرف صادق الاسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان لأن للاسلام صوىً ومناراً كمنار الطريق يعرف به صاحبه ذلك أن الله سبحانه لم يكن ليذر الناس على حسب ما يدعونه بألسنتهم بدون اختبارهم على صحة إيمانهم بحيث يقول أحدهم أنا مسلم أنا مؤمن أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فإن هذا الكلام لا نزال نسمعه من لسان كل إنسان وحتى المشركون الوثنيون الذين يتوسلون بأهل القبور ويتضرعون إليهم في قضاء حوائجهم ويطلبون الشفاعة منهم فإنهم عندما يفرغون من دعائهم يقولون أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله فهم مسلمون بألسنتهم ومشركون بأعمالهم واعتقادهم. ومن المعلوم أن للاسلام أعمالاً هي بمثابة الدليل والبرهان على صحة الايمان كما روى الامام أحمد من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الاسلام علانية والايمان في القلب» ومعنى كون الاسلام

علانية أن المسلم على الحقيقة هو من يصلي الصلوات الخمس المكتوبة ويؤدي الزكاة المفروضة ويصوم رمضان ويقوم بشرائع الاسلام فيظهر إسلامه علانية للناس بحيث يشهدون له بموجبه والناس شهداء لله في أرضه وهذه الأعمال هي بمثابة العنوان لصحة الايمان بها يعرف صادق الاسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان يقول الله ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[1] أي لا يمتحنون ولا يختبرون على صحة ما يدعون ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ أي اختبرنا الأمم قبلهم بالشرائع وعمل الواجبات وترك المحرمات ـ فليعلمن الله الذين صدقوا ـ أي في دعوى إيمانهم فقاموا بواجبات دينهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم فصدق فعلهم قولهم ـ وليعلمن الكاذبين﴾[2] الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ولم تنقد للعمل به جوارحهم وصار حظهم من الاسلام هو محض التسمي به والانتساب إليه بدون عمل به ولا انقياد لحكمه فكانوا كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٢.
(٢) سورة العنكبوت: آية ٣.

بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[1].

لهذا نجد كثيراً من الناس في البلدان العربية يتسمون بالاسلام وهم منه بعداء وينتحلون حبه وهم له أعداء يعادون بنيه ويقوضون مبانيه لم يبق معهم من الاسلام سوى محض التسمي به والانتساب إلى أهله وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يقومون بواجبات دينهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله من الربا والزنا وشرب الخمر ولا يدينون دين الحق قد خرقوا سياج الشريعة واستخفوا بحرمات الدين واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

إن الناس على طبقات شتى فمنهم أناس يتسمون بالاسلام ويصومون رمضان لكنهم لا يصلون الصلوات الخمس المفروضة ولا يؤدون الزكاة الواجبة في أموالهم كما عليه عمل أكثر أهل البلدان العربية. ومنهم أناس يصلون الصلوات الخمس المفروضة ويصومون رمضان لكنهم

---

(1) سورة البقرة: آية ٨ ــ ١٠.

لا يؤدون الزكاة الواجبة في أموالهم وهم أكثر التجار فهؤلاء كلهم ممن قال الله فيهم ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً﴾[1] فلا يكون المسلم مسلماً حقاً حتى يأخذ بعزائم الاسلام كلها وكيف يكون مسلماً من يصوم رمضان ثم يصر على ترك الصلاة المفروضة التي هي عمود الاسلام والناهية عن الفحشاء والمنكر والآثام والتي هي آخر ما يفقد من دين كل إنسان فليس بعد ذهابها إسلام ولا دين فلا يستبيح ترك الصلاة مؤمن بوجوبها لما في الصحيح عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة من تركها فقد كفر». وفي رواية «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد أشرك» لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالايمان والانقياد له بالطاعة والصلاة والزكاة والصيام.

إن بعض الناس يعتذر عن أداء الصلاة بعدم نظافة ملابسه وعدم طهارة سراويله وليست هذه بعذر يبيح ترك الصلاة فإن الصلاة لا تسقط بحال إلا بزوال التكليف

(١) سورة النساء: آية ١٥٠ ـ ١٥١.

كالجنون ولو خلصت نيتهم وصلح عملهم وصدق عزمهم لبادروا إلى الطهارة التي هي مفتاح الصلاة والتي يترتب عليها تكفير السيئات ثم بادروا إلى فعل الصلاة ولكن ﴿كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[1].

ومثله الزكاة فقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» ومصداقه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾[2] وفي الآية الأخرى ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾[3] وقد جعل الصحابة أداء الزكاة من حقوق الاسلام الذي يجب الجهاد في سبيله وقد استباحوا قتال المانعين للزكاة وعدّوهم مرتدين بمنعها ولهذا قال أبو بكر: «والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فهي من

(١) سورة التوبة: آية ٤٦.

(٢) سورة التوبة: آية ١١.

(٣) سورة التوبة: آية ٥.

حقوق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» لأن شرائع الاسلام مثل الصلاة والزكاة والصيام واجتناب الحرام كلها تنزيل الحكيم العليم شرعها وأوجبها من يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد وأنها هي أسباب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم لأن الله سبحانه لا يوجب شيئاً من الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام إلا مصلحته راجحة ومنفعته واضحة ولا يحرم شيئاً من المحرمات كالربا والزنا وشرب الخمر والقمار إلا ومفسدته راجحة ومضرته واضحة.

فالتخلق بالعمل بالشرائع الدينية هو الذي يهذب الأخلاق ويطهر الأعراق ويزيل الكفر والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ويجعل صاحبه متحلياً بالفرائض والفضائل ومتخلياً عن منكرات الأخلاق والرذائل سيما الصلاة فإنها تذكر بالله الكريم الأكبر وتصد عن الفحشاء والمنكر وتغرس في القلب محبة الرب ومحبة الجود والكرم وبغض الهلع والجشع ﴿إن الانسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذا مسه الخير منوعاً. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون﴾[1].

(١) سورة المعارج: آية ١٩ ــ ٢٣.

ولهذا يقال: أن كل متدين متمدن.

ولن ترجع إلا نفس عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجر

أما عدم الدين فإنه جرثومة الفساد وخراب البلاد وفساد أخلاق العباد وخاصة النساء والأولاد وإنما تنشأ الحوادث الفظيعة والفواحش الشنيعة من القتل وشرب الخمر وهتك الأعراض ونهب الأموال واختطاف النساء والأولاد من العادمين للدين الذين ساءت طباعهم وفسدت أوضاعهم فلا يرجون عند الله ثواباً يخافون عقاباً كما قال تعالى في صفتهم: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام.وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.وإذا قيل له إتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1].

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٤ـ٢٠٦.

الايمان بالله رباً

«وقد ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً رسولاً» رواه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

إن معنى الرضى بالله رباً هو أن يؤمن ويصدق بوجود الرب الواحد الفرد الصمد رب العالمين وخالق السموات والأرض خلق الخلق من العدم بقدرته ورباهم بنعمته وأوجد لهم جميع ما يحتاجون إليه من المطاعم والمشارب والحيوانات والفواكه والثمرات والخيرات ليتنعموا بذلك في حياتهم ويستعينوا بها على عبادة ربهم ويتمتعوا بها إلى آخرتهم ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾[1] فمن قال ان السموات والأرض ومن فيهن خلقت بالصدفة أو خلقت بالطبيعة فقد كفر بالله ويسمون هؤلاء بالدهريين وبالطبيعيين لأنهم ينسبون كل شيء إلى الطبيعة بدعوى أنها الموجدة لها دون الله عز وجل وإذا

---

(١) سورة سبأ: آية ١٥.

سألتهم عن الطبيعة وما هي لم يجدوا جواباً إلا أنها محض العدم ومن المعلوم بالبديهة أن العدم لا يخلق الوجود يقول الله: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[1].

فوا عجبا كيف يعصى الاله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ان الايمان بالله رباً يستلزم التصديق والتسليم بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من إثبات الكلام والاستواء والنزول والوجه والسمع والبصر.

فأهل السنة من هذه الأمة يؤمنون بكل ما جاء في القرآن والسنة من آيات الصفات ويقولون ان الحق هو الايمان بها والتسليم لما جاء عن الله ورسوله فيها قائلين آمنا بالله وما جاء عن الله على مراد الله وآمنا برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

---

(١) سورة الطور:٣٥ـ٣٦.

فكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره ويقولون: «أمرّوا آيات الصفات كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن الله سبحانه ذاتاً لا تشبه ذات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ويقولون كما قال الامام مالك لما سئل عن الاستواء. فقال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة» وكذا يقال في جواب السؤال عن النزول وعن الوجه والسمع والبصر فيقولون: الوجه معلوم والكيف مجهول الايمان به واجب. وكذا سائر الصفات فالذين أنكروا وكذبوا بكلام الله اضطروا إلى القول بخلق القرآن ففروا من التشبيه ووقعوا في التعطيل والكلام صفة كمال والله سبحانه موصوف بكل كمال والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن الله ذاتاً لا تشبه ذات المخلوقين فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وكان الامام أحمد يقول: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به

خصموا وإن أنكروه كفروا» يريد بهذا أن المنكرين للصفات يقال لهم هل تؤمنون أن لله علمًا يعلم به خائنة الأعين وما تخفي الصدور فكذلك المخلوق فإن له علمًا يعلم به ما يمكنه إدراكه وإحاطة العلم به وعلم المخلوق ليس كعلم الله وكذلك سائر صفات الله لا يشبهها شيء ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

فمن آمن بظاهر هذه الصفات ووكل علمها وتفسيرها إلى الله وإلى رسوله فقد أحسن حيث انتهى إلى ما سمع وسلم من عناء التعطيل والتحريف والانحراف ومن تكلف الكلام فيما لا علم به والذي يؤول به إلى تعطيل الرب عن صفاته وإلى التكذيب بكلامه ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[2]

وقد قيل:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته
ولا ذاته شيء عقيدة صائب

(١) سورة الشورى: آية ١١.
(٢) سورة يونس: آية ٣٩.

نسلم آيات الصفات بأسرها

واخبارها للظاهر المتقارب

ونركب للتسليم سفناً فإنها

لتسليم دين المرء خير المراكب

ومن الايمان بالله الايمان بالقرآن

إن القرآن كلام الله غير مخلوق ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾[1] ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾[2] ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾[3] ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[4].

(١) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٢) سورة النحل: آية ١٠٢.
(٣) سورة فصلت: ٢ ـ ٤.
(٤) سورة الشورى: آية ٥٢.

فالقرآن كلامه سبحانه يجب الايمان به. يقول الله سبحانه: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾[1]. وقال: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[2]. ولأن الكلام صفة كمال والله سبحانه موصوف بالكمال ومنزه عن النقص فهو كلامه سبحانه غير مخلوق.

فمن كذب بكلام الله أو قال ان القرآن مخلوق أو أنه شيء فاض على نفس محمد بدون أن يتكلم الله به وبدون أن ينزل به جبريل عليه فقد كذب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله وقال بمقالته الوحيد العنيد القائل ﴿إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر﴾[3] ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيمًا﴾[4].

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٧٥.

(٣) سورة المدثر: آية ٢٥و٢٦.

(٤) سورة الفرقان: ٥ و٦.

رؤية الربّ في الآخِرَة

ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة يقول الله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾[1] وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» يعني بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر.

أما رؤية الرب في الدنيا ففيها خلاف والقول الراجح: أنه لا يراه أحد وحكى الله عن نبيه موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾[2] وسئل النبي: هل رأيت ربك؟ قال: لا نور أني أراه. أي حال دون رؤيته نور هائل يمنع من رؤيته في الدنيا وقد

(١) سورة القيامة: آية ٢٢ ــ ٢٣.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

قالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثكم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الغربة عليه. ثم قرأت قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾»[1].

(١) سورة الأنعام: آية ١٠٣.

الايمان بالملائكة الكرام

إن من أصول الايمان أن تؤمن بالله وملائكته يقول الله: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[1] وقال: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[2] فالايمان بالملائكة يتفرع عن الايمان بالله عز وجل وعن الايمان بالكتب المقدسة النازلة من الله على أنبيائه ورسله.

والملائكة هم عالم غيبي عاقلون خلقهم الله لخدمته وعبادته كما خلق الجن والأنس. ومن صفتهم أنهم عقول بلا شهوات فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وقد يتشكلون بأمر الله وإرادته كما نزل

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٥.

جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصول الدين والصحابة يستمعون فلما انصرف قال النبي هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم. ورؤي مرة في صورة دحية بن خليفة الكلبي ورآه مرة في صورته التي خلقه الله عليها بمنظر هائل قال تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى.عند سدرة المنتهى﴾[١] ولا يتوقف الايمان بالملائكة على رؤيتهم فإنهم من عالم الغيب وقد أثنى الله على المتقين الذين يؤمنون بالغيب فالايمان بوجود الرب إيمان بالغيب والايمان بالملائكة إيمان بالغيب والايمان بالبعث بعد الموت للحساب وبالجنة والنار إيمان بالغيب.

والناس بين مؤمن موحد يصدق بكل ما أخبر الله به تصديقاً جازماً وإن لم يدركه بحواسه إيماناً ليس مشوباً بشك ولا ريب ولا مشروطاً بعدم معارض.

وبين مادي ملحد لا يؤمن إلا بما يدرك بحواسه فهو ينكر كل ما لا يدرك رؤيته فيكذب بوجود الرب ويكذب بالملائكة ويكذب بالجنة والنار وفيهم أنزل الله ﴿هل

---

(١) سورة النجم: آية ١٣ــ١٤.

ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾[1].

إن عدم علم الشخص للشيء وعدم مشاهدته له لا ينفي وجوده ولا وقوعه وقد أنزل الله في المكذبين به قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين. فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾[2].

وهذا التأويل الذي عناه القرآن هو يوم القيامة حين تبدو المغيبات للعيان فيتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده وتبرز الملائكة وحين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهذا هو معنى التأويل في هذه الآية ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٨.

(٢) سورة يونس: آية ٣٩ــ٤١.

رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

فإنكار الملائكة أو نسبتهم إلى الأفعال الخيرية في الشخص كما تقوله الفلاسفة هو كفر بهم يستلزم التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده.

والمؤمن حقاً هو من يؤمن بكل ما جاء عن الله ورسوله إيماناً حازماً بدون تردد سواء أدرك ذلك بمشاهده ومشاعره أو لم يدركه لأن الرسل أتت بمحارات العقول من الأخبار بالمغيبات والمعجزات.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٥٣.

الايمان باليَوم الآخِر

إن الايمان باليوم الآخر هو الأصل لصلاح الأعمال واستقامتها والتحفظ على الفرائض والفضائل والتخلي عن المنكرات والرذائل ويغرس في القلب محبة الرب والتقرب إليه بطاعته فهو ينظم الانسان في حياته أحسن نظام بحيث يخاف عواقب سيئاته ويرجو ثواب حسناته أما عدم التصديق باليوم الآخر بالثواب والعقاب والجنة والنار فإنه ينشأ عنه غالباً الأعمال الفظيعة والفواحش الشنيعة ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً. لأن من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ومن خاف الله لم يشف غيظه ومن اتق الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون وذلك أن المؤمن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ودار فناء وزوال **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً. وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾**[1] وقد سمى الله الدنيا دار

(١) سورة الكهف: ٧ و٨.

متاع ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[1] ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[2]. والمتاع هو ما يتمتع به صاحبه وقتاً من الزمن ثم ينقطع عنه مأخوذ من متاع المسافر أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ثم أن هذا الموت الذي أفسد على أهل الدنيا نعيمهم ولذاتهم ليس هو فناء أبداً لكنه انتقال من دار إلى دار أخرى ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[3] فلا يجزع من الموت ويهوله الفزع منه إلا الذي لم يقدم لآخرته خيراً والذي يقول ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾[4] فهذا هو المفرط في حياته الذي عمر دنياه وأخرب آخرته ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[5] فيندم حينما ينزل به الموت أشد الندم ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي. فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد﴾[6] وأنه ما بين أن يثاب الانسان على

---

(١) سورة النساء: آية ٧٧.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٨٥.

(٣) سورة النجم: آية ٣١.

(٤) سورة المؤمنون: آية ٣٧.

(٥) سورة الحج: آية ١١.

(٦) سورة الفجر: آية ٢٤ــ٢٦.

الطاعة والاحسان أو يعاقب على الاساءة والعصيان إلا أن يقال فلان قد مات وما أقرب الحياة من الممات وكل ما هو آت آت.

والمؤمن يعتقد أن له حياة في الآخرة هي أبقى وأرقى من حياته في الدنيا والموت وإن كان مكروهاً لدى النفوس لكنه سبب في انتقال المؤمن من دار الشقاء والفناء إلى دار السعادة والبقاء ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقال الصحابة: يا رسول الله كلنا يكره الموت. فقال: انه ليس الأمر كذلك ولكن الانسان إذا كان في إنقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة فإن كان من أهل الخير بشر بالخير فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وإن كان من أهل الشر بشر بالشر فكره لقاء الله وكره الله لقاءه». إن من كانت عقيدته التكذيب باليوم الآخر وإنكار البعث للحساب والثواب على الحسنات والعقاب على السيئات فإنه ينصرف بعقله وعمله واهتمامه إلى العمل في دنياه واتباع شهوات بطنه وفرجه ويترك فرائض ربه وينسى أمر آخرته وقد حذر الله المؤمنين أن يكونوا أمثالـه فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد

واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون.ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[1] أي نسوا حق الله عليهم من صلاتهم وزكاتهم وسائر واجباتهم فأنساهم الله أنفسهم أي أنساهم مصالح أنفسهم الدينية والدنيوية وحذر الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم.

فهؤلاء الذين ينكرون وجود الرب ويكذبون بالبعث بعد الموت ويكذبون بالجنة والنار هم عند المحققين من علماء المسلمين أكفر من اليهود والنصارى وضررهم على الإسلام والمسلمين أشد من ضرر اليهود والنصارى من أجل أن المسلمين يغترون بهم وينخدعون لأقوالهم ولم يأمر الله على لسانه نبيه بقتل المرتد عن دينه إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم عقائدهم وأخلاقهم فإن الأخلاق تتعادى والطباع تتناقل.

فمتى جهر هؤلاء بإلحادهم في بلادهم ترتب على جهرهم فتنة في الأرض وفساد كبير لأن الجهر بالالحاد هو جرثومة وخراب البلاد وفساد أخلاق العباد وخاصة النساء والأولاد لأن الناس مقلده لبعضهم من بعض في الخير والشر.

---

(١) سورة الحشر: آية ١٨ و١٩.

فمتى وجد من يجاهر الدين بالعداء ويرمي القلوب بإنكاره وكراهيته ويدعو إلى الاعراض عنه والتكذيب به وعدم التقيد بحدوده وفرائضه فأولئك هم نواة الفتنة والمحاربون لله ورسوله وقد أوجب الله قتلهم وقتالهم وسماهم أئمة الكفر فقال تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾[1].

فسماهم أئمة الكفر من أجل أن الناس يقتدون بهم في كفرهم وضلالهم وكان من عادة السلف أنهم يكتبون عقيدتهم في صدر وصيتهم ليعلموا الناس أنهم ماتوا على عقيدة أهل السنة فيقولون: هذا ما أوصى به فلان بن فلان وهو شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عيسى رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور شهادة عليها أحيا وعليها أموت وعليها أبعث إن شاء الله تعالى والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرر في ١٩ جمادي الأولى سنة ١٣٩٦

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢.

فهرس

عقيدة الإسلام والمسلمين

الإيمان بالقضاء والقدر

على طريقة أهل السُّنة والأثر

مقدمـة

إلى العلماء المحترمين وإلى الشبـاب المثقفين وإلى الناس أجمعين.

أما بعد، فإن هذه الرسالة النفيسة تبحث عن مسألة عويصة قد اضطرب الناس في حقيقتها والأجوبة عليها وهي مسألة القدر وما وقع فيها من اضطراب البشر وأن العلم الصحيح المستند إلى النصوص النقلية والعقلية هو أعظم نافع وأقوى رادع لما يعرض للإنسان في حياته من فتن الشبهات والتشكيكات التي يثيرها أهل الجدل من الملاحدة والقدرية مما يزيغ الأذهان ويوقع في الافتتـان وخاصة العوام وضعفة العقول والأفهام بل قد تزيغ المسلم عن معتقده الصحيح ثم تقوده إلى الإلحاد والتعطيل والزيغ عن سواء السبيل.

فمتى لم يرسخ في قلب الإنسان معرفة الحق بدليله ويميز بين صحيحه وعليله، مما يتعلق بعقائد الدين وما يدعمها من الحجج والبراهين وإلا فإنه سيصاب بالإرتباك والخجل وعقدة الوجوم والوجل عند أول ملاقاة لأهل

الجدل فيبقى صريعاً لجهلهم قد استحوذ عليه باطلهم لعدم وجود ما يصول به ويجول من علم اليقين والبصيرة في الدين إذ العلم الصحيح سلاح الدنيا والدين وصلاح المخلوقين به تستنير البصيرة وتقوى الحجة.

وإن مما ندركه على بعض الشباب المثقفين المتخرجين وعلى بعض علماء المسلمين كون أحدهم متى ظفر برسالة هامة تكشف له الإشكالات وتزيل عن قلبه الشكوك والشبهات وهي صغيرة الحجم غزيرة العلم بحيث يستطيع دراستها في مجلس واحد بدون مشقة ولا عناء فيكون حظه منها هو النظر منه إلى عنوانها وعسى أن ينشط لدراسة الوجه الأول والثاني منها ثم يصفق بأجنحتها بعضها على بعض ثم يضعها في سلة المهملات وذاك آخر العهد بها فيعود جهد صاحبها ضياعاً وعلمه عيالاً أشبه من يزف امرأة حسناء إلى عنين أو كالمطر الوابل في الأرض السبخة لكونه لا قيمة للعلم عنده.

فيالائمي دعني أغالي بقيمتي
فقيمة كل الناس ما يحسنونه

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

المؤلف

الإيمان بالقضاء والقدر
على طريقة أهل السنة والأثر

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

أما بعد فإن القضاء والقدر قد ضل فيه خلق من البشر حيث حملوه على غير المعنى المراد منه فتفرقوا فيه شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقد صار من سيما الملاحدة أهل الجدل، شدة اللحاح في السؤال عن القضاء والقدر، لا لأجل الاستفادة والاستفسار عن الحق وإنما هو لأجل التضليل به والتشكيك فيه، فعندما تلقى أحدهم فإنه يبادرك بالسؤال عن القدر لكونهم وجدوا فيه

لظنهم نوعاً من العذر لهم في إسقاط الواجبات وارتكاب المنكرات وشرب المسكرات. حتى إذا أمرت أحدهم بالخير أو نهيته عن الشر قال: هذا أمر كتبه الله علي. يريدون أن يلقوا جريمتهم على كاهل القضاء والقدر، لاعتقادهم أن القضاء والقدر بمثابة الغل في أعناقهم والقيد في أرجلهم وحجتهم به داحضة عند ربهم. لأنهم على طريقة المجبرة فما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون ﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾.

وقد يتجارى بهم الهوى والتوسع في فنون الفجور فيقولون: كيف يكتب الرب علينا الشقاء ثم يعذبنا بالنار.

وسمع من بعض الملاحدة قوله: كيف يخلق الله إبليس ويسلطه على الناس ثم يعذب من أطاعه بالنار والذنب ذنب الذي خلق إبليس. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وهؤلاء يسميهم العلماء مجوس هذه الأمة لأنهم على طريقة المجبرة يرون أنهم مجبورون على فعل الجرائم بطريق القضاء والقدر. قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد وقهره على فعل ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون وإنما معناه الاخبار بسبق علم الله بما يكون من إكساب

العبد وصدورها عن اختيار منه. والله سبحانه قد أعذر وأنذر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فأنزل القرآن فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان يفرق الله فيه بين طريق أهل الكفر والايمان والهدى والضلال، وأرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. يقول الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَةٍ رَسُولا أن اعْبِدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَتْ عَلَيْهِ الضَلالَة﴾. وأنزل الله على سبيل الأعذار والأنذار: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتَنِنَكُمُ الشيْطَان كَمَاَ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

والله سبحانه خلق الإنسان وعلمه البيان وخلق له السمع والبصر والعقل ليتمكن بذلك من فعل ما ينفعه والتباعد عما يضره في أمر دنياه وآخرته إذ هو مختار في عمله ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾، ثم أن الله سبحانه خلق الإنسان وخلق الشيطان ليبلوكم أيكم أحسن عملاً كما خلق الجنة جزاء وكرامة لمن أطاعه واتقاه وخلق النار عقاباً وعذاباً لمن أطاع الشيطان. والناس بين مؤمن تقي وفاجر شقي ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

وأنزل الله: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لاَ تَعْبُدُوا الشيطان ـ أي لا تطيعوا الشيطان ـ إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون. هذه جهنم التي كنتم توعدون. أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ فأخبر الله سبحانه اعتناقهم للكفر ودخولهم النار حصل عليهم بسبب كسبهم واختيارهم لأنفسهم حيث اختاروا الكفر على الايمان واستحبوا العمى على الهدى كما قيل لا إدانة إلا بعد التحقيق.

وقد حقق سبحانه ذلك بقوله: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وقال: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا﴾ فعلى الله قصد السبيل وعلى العبد العمل.

وحتى أن إبليس يتبرأ يوم القيامة من الذين اتبعوه وأشركوا به ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر ـ أي دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ـ إن الله وعدكم وعد الحق ـ أي وعدكم وصدقكم ـ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي

فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

فأفصح إبليس عن نفسه بأنه لم يخرج إلى الناس بمدافع وبنادق يحدوهم بها بطريق الجبر إلى طاعته وإنما غاية كيده وعمله هو الوسوسة في الصدر فقط فلا حجة لهم في الاعتذار به.

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾.

حقيقة القدر

إن الكلام في القضاء والقدرِ قد صار مثاراً للجدل بين المتقدمين والمتأخرين حتى افترقوا فيه على مذاهب شتى كل حزب بما لديهم فرحون فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ونحن وإن قلنا أن القدر يرجع إلى تقدير الله للأشياء بنظام واتقان وأنه يرجع إلى قدرة الله وأنه على كل شيء قدير وفعال لما يريد. أو أنه يرجع إلى سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها وأنه يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون فكل هذه من الصفات الداخلة في قدر الله.

والقدر هو من عالم الغيب الذي ينبغي للإنسان أن لا يشغل ذهنه بالتفكير في كنهه.

وكان الصحابة لا يخوضون في موضوع القضاء والقدر لكونه من عالم الغيب ومن الأمور الخفية عن العيان كما قال الشاعر زهير:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
سعي الفتى وهو مخبوء لـه القدر

وحسب الشخص أن يؤمن بكل ما أخبر الله به من صنع خلقه وسبق علمه بكل شيء وانه على كل شيء قدير وفعال لما يريد. ولما سئل الامام أحمد عن القـدر أجاب قائلاً: «القدر قدرة الرحمن» وقد أخذها العلامة ابن القيم فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الـورى
في شـأنـه هـو قـدرة الـرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد
لمـا حكـاه عن الـرضي الـربـان
له قال الإمام شفى القلوب بلفظة
ذات اختصـار وهي ذات بيـان

والقدر هو قدرة الرحمن

وهو أن تعلم وتؤمن بأن الله على كل شيء قدير يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون. ولما سئل الإمام أحمد عن القدر أجاب قائلاً: «القدر هو قدرة الرحمن» قال ابن عقيل أن الإمام أحمد شفى القلوب بلفظة مختصرة وهي ذات بيان وشمول معان.

قال الراغب الأصبهاني في غريب القرآن «القدر يدل على القدرة وعلى المقدور» وفي فتح الباري عن أبي المظفر السمعاني قال: «إن معرفة القضاء والقدر تتوقف على الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل فمن عدل عن التوقيف فيه عليهما ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العليل» انتهى.

وصدق أبو المظفر فإن دلائل القضاء والقدر يجب أن تؤخذ من الكتاب والسنة إذ هما الدليل الكافي والدواء

الشافي مع قطع النظر عن كلام بعض المفسرين في معنى القضاء والقدر إذ هو كلام بشر ينقل بعضهم عن بعض القول به فيشتهر وينتشر وربما كان غير صحيح.

إن القدر يدل بمنطوقه ومفهومه على قدرة الرب سبحانه وعلى تقديره للأشياء بنظام واتقان وإحكام. وكل من تتبع نصوص القرآن يجدها تدور على هذا البيان. فالقضاء في سائر استعمالاته هو بمعنى الفراغ من الشيء.

فالقضاء والقدر معناهما: أن الله سبحانه قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير متقنة مضبوطة محكـومة بسنن لا تقبل التغيير ولا التبديل وإنه قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تعديل ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص صنع الله الذي أتقن كل شيء.

يقول الله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي جعله ذا مقادير منظمة متقنة محكمة. كقوله: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾.

ومنه قوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي بتقدير ونظام متقن، كل شيء بحسبه فلم يخلق شيئاً بطريق

الصدفة ولا الطبيعة. قال ابن جرير في التفسير: «إنا خلقنا كـل شيء بمقدار قـدرناه وقضيناه»، وبعض المفسـرين يغلطون في تفسير هذه الآية حيث يحملون تفسيرها على القضاء والقدر ثم يتوسعون في سياق الآثار الواردة في القضاء والقدر كأنه الآية سيقت لذلك وهو خطأ فإنه لا تعلق للآية بالقضاء والقدر الذي يعنونه ونظير هذه الآية قوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ أي بقدر حاجة النـاس ليس بـالكثـير المنهمـر المستمـر فيهلك حـرثهم ومواشيهم ولا قطعة واحدة فيضر البنيان وإنما ينزله رشاشاً قطعاً على حسب ما يخرج من فتحات المنخل بحيث يروي الأرض وتسيل منه الأودية لأنه لو نزل كتلة واحدة لضر الأنام والأنعام والحرث ولزال منه الانتفاع المطلوب نظيره قوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾.

وقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ هو نظير قوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ لفظاً ومعنى وهو يرجع إلى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي جعله ذا مقادير متناسبة ثابتة ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾.

نظيره قوله: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ أي جعلناه ذا مقادير ينزل كل ليلة منزلة منها لا يتخطاها ولا يقصر عنها ومنه قوله: ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ أي على موعد قدرنا مجيئك فيه وذلك أن الله وعده بأن يكلمه بعد أربعين ليلة قال تعالى: ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾.

ومثله قوله: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾ وقرىء قدّرنا ـ بالتشديد ـ أي قدرنا ذلك تقديراً متقناً فنعم القادرون وقرىء بالتخفيف من القدرة أي قدرنا على خلقه وتصويره في أحسن صورة فنعم القادرون.

فهذا حقيقة القدر المذكور في القرآن ومنه قول الشاعر:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقا عن غرة زلجا

وأما القضاء فإنه الفراغ من صنع هذه المخلوقات وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين

وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ فذكر القضاء في قوله: فقضاهن سبع سموات ـ كما ذكر القدر في قوله: وقدر فيها أقواتها ذلك تقدير العزيز العليم ـ فهذا معنى حقيقة القضاء والقدر وأنه خلق الأشياء بنظام واتقان ثابت لا يتغير بتغير الزمان كل شيء بحسبه وهذا معنى ما في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض» وهذه الكتابة هي عبارة عن العلم القائم بذات الله وهو معنى قول أحدنا: قدر الله وما شاء فعل قدرة الله أي وسابق علم الله.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن جمهور أهل السنة المثبتة للقدر يقولون ان العبد فاعل حقيقة وان له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه العقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء من السحاب وينبت

النبات بالماء ولا يقولون ان قوى الطبائع الموجـودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون أن لها تأثيراً حقيقياً كتأثير الأسباب في مسبباتها والله سبحانه خالق السبب والمسبب» انتهى.

ولما سئل الإمام أحمد عن القدر قال: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذه الكلمة وقال ان الامام أحمد شفى القلوب بهذه الكلمة المختصرة وأخذها العلامة ابن القيم فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الـورى
في شـأنـه هـو قـدرة الـرحمن

كتابة المقادير

ثبت في الكتاب والسنة كتابة المقادير كقوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ وقوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾.

وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسمائة عام» وحديث: «أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» وإننا عندما نقرأ أو نسمع ما ثبت عن الله ورسوله في كتابة المقادير يجب أن نفهم بأن هذه الكتابة هي من عالم الغيب فلا ينبغي أن نقيسها على

الكتابة التي نكتبها بأيدينا ولا على القلم الذي نكتب به بل هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها فإنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون فهي بمثابة المكتوب المضبوط في علم الله عبر عنها سبحانه بالكتابة كما يقول الرجل لصاحبه حاجتك مكتوبة في صدري إذا أراد الاعتناء بها على أن من طبيعة الانسان النسيان وبه سمي إنساناً قيل من أجل نسيه واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً**﴾ وأنشدوا:

وما سمي الانسان إلا لنسيه
وما القلب إلا أنه يتقلب

وقيل من أجل أنه يأنس بغيره لأنه اجتماعي بالطبع والله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وما كان ربك نسياً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكتابته للأشياء إشارة إلى علمه بسائر المعلومات لا تخفى عليه خافية من أمر خلقه فهي كالمكتوب المضبوط في علمه إذ ليس عندنا وصف الكتابة ولا القلم المكتوب به ولا المكتوب فيه وقد اخترع هذا المخلوق بصنعته آلة تكتب كل ما تسمعه من الكلام بدون يد ولامداد ولا قلم فتسجل جميع ما تسمعه

من الكلام وأهلها نائمون على فرشهم كما هي معروفة وموجودة في دور الاذاعات ومثله الآلة التي اخترعوهـا لإحصاء حساب الخارج من مصاريف الماء والكهرباء بما يسمونه العداد فيكتب كل ما يخرج بدون قلم ولا مداد وأهله غائبون عنه وهي صنعة مخلوق فما بالك بالخالق القادر على كل شيء والفعال لما يريد إذا أراد أمراً قال له كن فيكون لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وإنما ذكرت هـذا لتقريب الأذهـان إلى الاذعان بالايمان بالقرآن فهو سبحانه يعلم بالمصيبة قبل وقوعها. وعلمه سبحانه بها ليس هو الذي أوقع المصاب في المصيبة وإنما وقعت بالأسباب المترتبة على وقوعها فإن كان وقوعها بسبب تقصير من الشخص بإهمال الأسباب والوسائل التي تقيه عن الوقوع فيها ويأمره دينه باستعمالها فإنه ملام على تقصيره في حماية نفسه وعدم استعماله للأسباب الطبيعية التي تحفظه ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ وإن كان لا طاقة له بدفع هذه المصيبة فإنه معذور ويلجأ إلى قوله «قدر الله وما شاء فعل» والنبي صلى الله عليه

وسلم في الحديث الصحيح قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان. وقد كان الأنبياء يستعملون الأسباب والوسائل التي تحفظهم من عدوهم مع أنهم مؤيدون بالوحي والحفظ من الله وقد ظاهر النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب بين درعين ولما كانت وقعة أحد أنزل النبي صلى الله عليه وسلم الناس منازلهم تجاه عدوهم وأنزل عبدالله بـن جبير بمن معه بفم الشعب وقال لهم: «إلزموا مكانكم هذا ولا تبرحوا عنه حتى لو رأيتم الطير تخطفنا فلا تنصرونا أو رأيتمونا نغنم فلا تشركونا» وكانت الغلبة أول النهار للنبي وأصحابـه حتى كسروا للمشركين سبعة ألوية أو تسعة فلما انهزم المشركون أخذت الأسلحة والأمتعة تتساقط من رواحلهم ودب الناس في أخذها فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة الغنيمة. فذكرهم أميرهم قول رسول الله لهم فعصوه ودبوا مع الناس في الغنيمة فدخلت خيل المشركين من ذلك الشعب فقتلوا سبعين من أصحاب رسول الله وشجوا رأس رسول

الله وكسروا رباعيته ودلوه في حفرة ظنوه قتيلاً.

وبعدها أخذ الصحابة يتفكرون في سبب هذه الهزيمة لظنهم أنهم أصحاب رسول الله وحزبه وأنهم لن يغلبوا أبداً من أجل إيمانهم فأنزل الله ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾ أي حصلت الهزيمة عليكم بسبب تقصيركم في حمايتكم وعصيانكم أمر رسول الله وأمر أميركم.

لهذا كانوا بعد ذلك أشد الناس احتفالاً بالأسباب لأن الله ربط الأسباب بمسبباتها ورسول الله سيد المتوكلين ظاهر في الحرب بين درعين ومر على حائط مائل فأسرع السير فقيل له في ذلك فقال: «أخشى موت الفجاءة» وقدم رجل مجذوم مهاجراً فرده رسول الله ومنعه من دخول البلد وقال له: إرجع فقد بايعناك وقال: لا يورد ممرض على مصح. وفي القرآن المنزل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ كل هذه من اتقاء الأسباب التي كان يستعملها رسول الله مع قوة توكله على ربه.

وهنا حديث يجادل به أهل الجدل من أهل القدر.

وهو في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إلتقى آدم وموسى فقال موسى أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء فبما أخرجتنا ونفسك من الجنة. فقال آدم: أنت موسى رسول الله وكلمك الله تكليمًا وقد قرأت التوراة أفلا وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى وذلك قبل أن أخلق بأربعين عاماً. قال: بلى. قال: فلم تلومني على أمر قدره الله عليّ» قال فحج آدم موسى.

وهذا الحديث من مشكل الآثار وقد ألحق به ابن حجر في فتح الباري عدد إشكالات كثيرة. أهمها: أنه مخالف لنص القرآن في قصة آدم في قوله ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وفي قوله: «ربنا ظلمنا أنفسنا» فلم يحتج آدم على ربه بكتابة المقادير بل اعترف بذنبه ولجأ بالتوبة إلى ربه. ومنها أنه يقوي مذهب الجبر المخالف للكتاب والسنة وإجماع الصحابة وسلف الأمة. ثم هذا اللقاء هل هو بالأرواح في الدنيا أم هو يوم القيامة حين يبعث الناس من قبورهم وتسقط عنهم التكاليف الشرعية إلى غير ذلك مما ذكر ج ١١ ص ٤٠٦.

وقال شيخ الاسلام إبن تيميّة في رسالة الاحتجاج بالقدر:

«قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب: فريق كذبوا بهذا الحديث لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ويجب تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم بل وجميع الأنبياء واتباع الأنبياء أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله.

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد. كقولهم: إنما حجه لأنه كان أباه والابن لا يلوم أباه. وقول بعضهم أن الملام كان بعد التوبة وهو لا معنى له. وقول بعضهم أن هذا تختلف فيه دار الدنيا والآخرة.

وفريق ثالث جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله فالواحد من هؤلاء إذا أذنب أخذ يحتج بالقدر ولو أذنب غيره أو ظلمه لم يعذره وهؤلاء هم الظالمون المعتدون. قال وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر وقد علم أن إبليس هو الذي أوقعه في الذنب حيث زين له الأكل من الشجرة التي نُهي عنها ﴿وناداهما ربهما ألم

أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ فتاب آدم من الذنب واستغفر فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له عند ربه لاحتج به ولم يتب إلى ربه ويستغفر من ذنبه» انتهى.

وقال الخطابي رحمه الله: «قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر أنه الاجبار والقهر للعبد على فعل ما قدره الله وقضاه ويتوهمون أن قول النبي: حج آدم موسى. من هذا القبيل وليس الأمر كذلك وإنما معناه الاخبار عن تقديم علم الله بما يكون من أفعال الناس واكتسابهم وملابستهم للخطايا عن قصد وتعمد وتقديم إرادة واختيار منهم لفعلها والحجة إنما تلزمهم بها واللائمة إنما تلحقهم عليها من أجل فعلهم لها بالاختيار.

وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله سبحانه قد علم من آدم أنه يتناول أكل الشجرة بداعي شهوته ورغبته واختياره وتزيين الشيطان له فكيف يمكن أن يرد علم الله فيه» انتهى.

وأما الحديث الثانى الذي يحتج به القدرية من أمثال

هؤلاء فهو في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثني رسول الله وهو الصادق الصدوق أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذي نفس محمد بيده أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

إن هذا الحديث كثيراً ما يجادل به الجهلة من خاصة الشباب الذين لم يعرفوا حقيقة القدر لظنهم أنهم مجبورون على أفعالهم الخيرية والشرية فيذهب فهمهم إلى أن بعض الناس مكتوب لهم السعادة وهم في بطون أمهاتهم مهما عملوا من عمل وآخرون مكتوب لهم الشقاوة مهما عملوا من عمل. فيظنون أن هذا القدر المكتوب هو عبارة عن الجبر وسلب الاختيار.

والتحقيق أن الكتابة نوعان: كتابة هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها وأن الله يعلم أحوال

خلقه وما هم عاملون وهم في بطون أمهاتهم فهذه لا تتبدل ولا تتغير لها وتسمى كتابة الأزل.

وعلمه سبحانه لا يتعلق به إجبارهم على فعل الخير أو الشر بل هم عاملون لأنفسهم مختارون لأعمالهم الصالحة والسيئة فهي كسبهم ويترتب الجزاء على ذلك **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾**.

﴿وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

والقرآن مملوء بتعليق الجزاء على العمل وإن كل امرىء مجازى بما عمل ان خيراً فخير وإن شراً فشر ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ولا نسبة عمله إلى القدر وحجته به داحضة عند ربه.

وأما الكتابة التي بيد الملك كما يفيده الحديث فإنه يقع فيها التبديل والتغيير بإذن الله وبمقتضى سنة الله في الأسباب التي رتبها الله لدفع القدر والقضاء ورفعه فإن الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وأما قوله: ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.

فمعنى سبق الكتاب إشارة إلى سبق علم الله بخاتمة حياة كل إنسان وذلك أن الرجل يولد مؤمناً بين أبوين مؤمنين فهو يؤمن بالله ويحافظ على فرائض الله من صلاته وصيامه وسائر واجباته ويجتنب المحرمات والمنكرات ويسير على هذه الطريقة المستقيمة غالب عمره. ثم يطرأ عليه الالحاد وفساد الاعتقاد فيكذب بالقرآن ويكذب بالرسول فيرتد عن دينه فيموت على سوء الخاتمة فيدخل النار بسبب كفره وإلحاده الذي هو خاتمة حياته لأن العمر بآخره وملاك الأمر خواتمه وليس سبق الكتاب الذي هو عبارة عن سبق علم الله بتطور حالة هذا الشخص هي التي حملته على الردة وعلى سوء الخاتمة وإنما وقعت بفعله واختياره لنفسه **﴿فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾** وقد حكى الله عن الغلام الذي قتله الخضر فقال: **﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾**.

وأما الذي يعمل بعمل أهل النار فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. فهو رجل يولد كافراً ويعيش كافراً حتى إذا كان في آخر عمره تاب إلى ربه واستغفر من ذنبه وأسلم فحسن إسلامه فصار يحافظ على واجباته من صلاته وصيامه وسائر عباداته حتى مات على ذلك. يقول الله: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**.

وهذه الآية نزلت في الكافر يسلم وأنه في حالة كفره كالميت وكالذي في الظلمات فلما أسلم صار حياً وخرج من الظلمات إلى النور **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾**.

وفي وقعة أُحد جاء الأصيرم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقاتل مع المشركين أول النهار فأسلم وأخذ يقاتل مع النبي فقتل شهيداً فقال رسول الله: «عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وفي حديث أبي سعيد مرفوعاً «ان الرجل يولد مؤمناً

ويعيش مؤمناً ثم يموت كافراً وان الرجل يولد كافراً ويعيش كافراً ثم يموت مؤمناً» رواه الامام أحمد لأن العمر بآخره وملاك الأمر خواتمه.

وهذا الكفر وهذا الايمان إنما فعله باختياره ورغبته ومن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ولهذا يقول الله: **﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾**.

والله سبحانه خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وخلق الانسان وخلق له السمع والبصر والعقل ليعرف بها المنافع والمضار وكما خلق الانسان فقد خلق الشيطان ليمتحن بذلك صحة من يطيع ربه ممن يطيع الشيطان يقول الله سبحانه: **﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين.وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ﴾** فأخبر سبحانه أن الحكمة في خلق إبليس هو إختبار الناس وامتحانهم على صحة إيمانهم ليعلم سبحانه من يطيع ربه ويعمل لآخرته

وهو مؤمن ممن هو شاك مرتاب في أمر آخرته والله سبحانه ينادي عباده يوم القيامة عند عـرض صحائف الأعمال على سبيل الأعذار والانذار: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجـد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ولهذا لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم من نفسـه أنه مستحق لدخولها بعمله ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير. فـاعترفـوا بذنبهم فسحقـاً لأصحاب السعير﴾.

بطلان الاحتجاج بالقدر

إن طريقة أهل السنة في القضاء والقدر هي الايمان به وان الله على كل شيء قدير وفعال لما يريد فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهم يؤمنون بالقضاء والقدر ولا يحتجون به فالمحتج به حجته داحضة عند ربه.

والقضاء والقدر الذي أوجب الله الايمان به ليس معناه أن الله يلزم الناس بما قدره وقضاه عليهم فقد جعل الله لهذه المقادير أسباباً تدفعها وترفعها من الدعاء والصدقة والأدوية وأخذ الحذر واستعمال الحزم وفعل أولي العزم وسائر ما يلزم إذ الكل من قضاء الله وقدره حتى العجز والكيس. وفي دعاء القنوت «اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت وبارك لنا فيما أعطيت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت» فلولا أن الدعاء يدفع شر القدر والقضاء لما شرعه النبي لأمته. ويدل له ما روى الترمذي عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: «لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الصدقة لتدفع ميتة السوء» فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن القدر والقضاء يندفع بهذه الأسباب التي شرعها الله لدفعه ورفعه فلا يكون لزاماً على الناس من ذلك كتابة الملك على الجنين وهو في بطن أمه حين يكتب أجله وعمله وشقي أو سعيد فإن هذه الكتابة يعتريها التبديل بإذن الله فإن الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

وسمع من دعاء عمر بن الخطاب «اللهم إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقياً فامحني واثبتني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب».

إن من الناس من يكسل ويعرض عن الدعاء اتكالاً منه على القدر والقضاء ويقول: إن كان هذا الأمر كتب لي فسيأتيني دعوت أو لم أدع. وهذا غلط وخطأ فإن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة ولم يشرع الله الدعاء إلا ليثيب الداعي على دعائه ويستجيب له والدعاء حبيب الله فليس شيء أكرم على الله من الدعاء وهو سلاح المؤمن. ومن ذلك بعض الأشياء المحبوبة المطلوبة يقدر الله حصولها والفوز بها عن طريق الدعاء ولا تحصل بدونه فإذا دعا ربه

حصلت له وإن لم يدع لم تحصل وكل هذه بقضاء الله وقدره.

أما القائم بعلم الله فإنه لا يبدل ولا يغير فإن الله يعلم أنه سيقع كذا وكذا في وقت كذا وكذا فهذا العلم لا تبديل فيه ولا تغيير بخلاف الكتابة التي بأيدي الملائكة والتي في اللوح المحفوظ فإنها تتبدل وتتغير بحسب سنة الله في تقدير ما يدفعها ويرفعها كما قال عمر: «نفر من قدر الله إلى قدر الله».

وإنما حكى الله الاحتجاج بالقدر عن المشركين حيث قالوا: **﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا أباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾** فأخبر الله بأنه ليس من شأن الرب إجبار الشخص على عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه لكون ذلك كله موكولاً إلى فعل الشخص نفسه واختياره لها **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾**.

وإنما وظيفة الرسل تبليغ الهداية والدعوة إلى العباد **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾**.

فالمحتجون بالقدر يسمون جبرية فقول بعضهم «لا يغني حذر عن قدر» ليس على إطلاقه فإنه قد يندفع القدر بالحذر وقد أرشد القرآن إليه لما يترتب عليه من النفع ودفع الضر. فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾** كما قال عمر «نفر من قدر الله إلى قدر الله» في قضية امتناع عمر والصحابة عن دخول الشام لما وقع بها الطاعون فنادى في الناس: إني مصبح على ظهر. فتأهبوا للرجوع فتلقاه أبو عبيدة بن الجراح فقال له: أفراراً من قدر الله يا عمر. فقال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وقد أرشد القرآن إلى أخذ الحذر الذي من لوازمه عدم الركون أو الركود إلى القدر فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** لأن الله سبحانه ربط الأسباب بالمسببات فما أذنب القضاء والقدر ولكن الناس يذنبون **﴿ما أصابك من حسنة**

فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ وقد قيل -
والشعر للعلامة ابن القيم رحمه الله :

وعـنـد مـراد الله تفـنى كميت
وعند مراد النفس تسدي وتلحم
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا
ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم
تنزه منك النفس عن سوء فعلها
وتعتب أقدار الاله وتظلم
وتفهم من قول الرسول خلاف ما
أراد لأن القلب منك معجم
بطيء عن الطاعات أسرع للخنا
من السيل في مجراه لا يتقسم
وتزعم مع هذا بأنك عارف
كذبت يقيناً في الذي أنت تزعم
وما أنت إلا جاهل ثم ظالم
وإنك بين الجاهلين مقدم

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : «إن التوكل
إنما يكون مع الأخذ بالأسباب وإن ترك الأسباب بدعوى

التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل فالتوكل محله القلب والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح والإنسان مأمور بالأسباب يقول الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وقال: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ وقال لنبيه لوط: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ وقال لنبيه موسى: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾ انتهى.

فالرسل دينهم الأمر والعمل مع إيمانهم بالقضاء والقدر فالأنبياء وأتباعهم يحاربون القدر بالقدر ويحكمون الأمر على القدر ويقولون أن القدر لا يمنع العمل ولا يجب الاتكال عليه والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «إعملوا فكل ميسر لما خلق له».

فهذه سيرة الرسول وأصحابه وعلماء السنة والجماعة يعملون بالحزم وفعل أولي العزم فعل من يرى أنه لا ينجيه ويسعده سوى عمله ثم يتوكلون على ربهم.

ولما أتي إلى عمر برجل قد سرق فقال: ما حملك على السرقة قال: حملني عليها قضاء الله وقدره فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره فأمر به فقطعت يده.

فالاحتجاج بالقدر لا يقبله أي إنسان فيما يقع عليه أو على أهله وماله فلو تعدى رجل على آخر فضربه أو أخذ ماله وإنتهك محارمه فعند سؤاله عن أفعاله قال: حملني عليها قضاء الله وقدره فإنه لا يقبل منه ذلك فما بالك بالاحتجاج به على الله في ترك طاعاته وارتكاب محرماته وما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون ولما سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن القدر وهل يجوز لهم من أجله ترك العمل قال لهم رسول الله: «إعملوا فكل ميسر لما خلق له». ولهذا قال الصحابة كنا بعد علمنا بالقضاء والقدر أشد اهتماماً منا بالعمل وقالوا: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقيها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً. فقال: هي من قدر الله إن كان أحدكم نافعاً أخاه فليفعل» لأن الله سبحانه خلق الأسباب والمسببات وجعل هذا سبباً لهذا فقال: تداووا ولا تداووا بحرام. وقال: «ان الله لم ينزل من داء إلا وله دواء علمه من علمه وجهله من جهله إلا الموت» وقد قيل:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما
نجح الأمور بقوة الأسباب

أضر ما ابتلي به الشخص
هو العجز اتكالاً على القدر

إن أكثر الناس يجعل عجزه توكلاً وفجوره قضاء وقدراً فمتى نصحته عن ترك الصلاة أو نهيته عن شرب المسكرات اعتذر إليك بأنه مكتوب علي فهو كما قيل: عند ترك الطاعات قدري وعند ارتكاب الكفر والمنكرات جبري.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل ويقال: نكح العجز التواني فولد بينهما الحرمان.

فمن نوع العجز الذميم الإعراض عن استعمال الأدوية المجربة لدفع البلاء ورفع الوباء توكلاً منهم بزعمهم على الله.

والله سبحانه خلق الناس وخلق لهم جميع

ما يحتاجون إليه من المطاعم والمشارب واللباس والأدوية وغير ذلك.

فكل العقاقير والأدوية التي يستعملها الأطباء لعلاج المرضى وللوقاية من البلاء والوباء هي بالحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه رحمة منه لعباده بإيصال نفعها إليهم وخص كل نوع بمرض يزاوله ويشفيه.

فالمرض هو من قدر الله والدواء الذي يعالج به ليشفيه هو من قدر الله أيضاً فهم يسلطون القدر على القدر ويتقون القدر بالقدر فيشربون الدواء الكريه المر خوفاً من الوقوع في الضر ويرتجزون يقولون:

نحن في دار بليات
نعالج آفاتاً بآفات

وقد ركب الله في الإنسان السمع والبصر والعقل ليتم بذلك استعداده لتناول منافعه واستعمالها في سبيل وقاية صحته وحفظ بنيته وكان من هدى النبي صلى الله عليه وسلم فعل التداوي في نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه ويقول: «عباد الله تداووا فإن الله لم ينزل من داء إلا وأنزل له شفاء» فاستعمال الأدوية

المباحة والوقاية النافعة هي من تحقيق التوحيد كما حقق ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وقال: «إن الطعن في الأسباب قدح في الشرع والاعراض عن الأسباب نقص في العقل لأن كل ما شرعه رسول الله لأمته وأمر به فإنه من الدين الذي يجب اتباعه.

وعـاجز الـرأي مضياع لفـرصته
حتى إذا فات أمر عـاتب القدرا

﴿وقـــل اعملوا فسيـرى الله عملكم ورســـولـه والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وما ربك بظلام للعبيد.

وقد أمر الله نبيه بأن يقول: **﴿وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنـا من المنذرين. وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾**.

شبهة النصارى على المسلمين في عقيدة القضاء والقدر

عقيدة القضاء والقدر قد كثر من النصارى الخلط والخبط في الطعن على الاسلام والمسلمين فيها لظنهم فيها الظنون الكاذبة حيث أخرجوها عن حدود ما أنزل الله وعن حقيقة ما يؤمن به المؤمنون.

وقالوا ان المسلمين في فقر وفاقة وفي تأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم من أجل اعتقادهم بالقضاء والقدر.

لظنهم أن المسلمين كانوا على عقيدة الجبر القائلين ان الإنسان لا يعدو أن يكون مجبوراً محضاً في جميع أفعاله.

وتوهموا أن المسلمين يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيف تميل وأنه لا حول لهم ولا قوة ولا اختيار وإنما ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب أن

تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ويزول عن خواطرهم داعيـة السعي والكسب والحرفة ثم يتحولون من عالم الوجـود إلى عالم العـدم ويسلبون العزة والقوة ويحكم فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين من أجلها بصفات المذلة وسيما الهوان.

ذلك ظن الذين كفروا في المسلمين وتبعهم على ظنهم هذا ضعفاء العقول من العرب الذين أولعوا بتقليد النصارى وتصديقهم فيما يقولون فهم يلفظون لفظهم كلما لفظوا ويتبعون ظلهم أينما انبعثوا.

وأقول أنهم افتروا الكذب على الله وعلى عباد الله فيما يقولون فإنه لا يوجد مسلم صحيح الاسلام في هذا الزمان يعتقد مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب القدرة والاختيار عن نفسه أو عن غيره ولو وجد فإنهم يلحقونه بالمجانين.

وكل الطوائف من المسلمين من زمن الصحابة إلى زماننا هذا يعتقدون للإنسان قدرة واختياراً وأن قدرته تؤثر في مقدورها حسب تأثير القوى والطبائع بما يسمى الكسب والاختيار وهو مناط التكليف الذي عليه مدار الثواب

والعقاب والفوز بالجنة والنجاة من النار يقول الله : **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**.

فهم يعتقدون أنهم محاسبون على ما وهبهم الله من القوى والاختيار ومطالبون بامتثال جميع الأوامر والنواهي الربانية إن أحسنوا فلأنفسهم وإن أساءوا فعليها.

فهم يلومون ويذمون كل من يحتج بالقدر في ترك الأمر وارتكاب النهي وأنه لا حجة له في ذلك بل حجته داحضة عند ربه.

وقد أمر رسول الله أمته بأن يأخذوا بالكيس والحزم وفعل أولي العزم في جميع أعمالهم من أمور دينهم ودنياهم وأن يأخذوا حذرهم ويستعدوا بالقوة لعدوهم وبما استطاعوا من الكيد والقوةونهى عن الكسل والعجز وأخبر أن الله يلوم عليه كما أرشدهم ودلهم على الدواء عند الحاجة إليه وقال ان الله لم ينزل من داء إلا وأنزل له دواء وقال تداووا ولا تداووا بحرام.

ونهى أشد النهي عن أن يتكلوا على القضاء والقدر في شيء من أعمالهم بل قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له

وهذا هو مناط التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل والمصلحة وعليه مدار عقيدة المسلمين وقد قيل: العاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه.

أما عقيدة الجبر كالذين يحيلون جميع تصرفاتهم في ترك واجباتهم أو ارتكاب محرماتهم إلى القضاء والقدر فهذا الاعتقاد قد انقرض أهله من سنين طويلة.

غير أنه في هذا الزمان نشأ طائفة من شباب العرب الماردين والمارقين عن الدين يحتجون بالقدر في ترك الواجبات وارتكاب المنكرات وشرب المسكرات ومتى عذلته أو نهيته عن سوء عمله قال هذا أمر كتبه الله علي فيجعلون عجزهم توكلاً وكفرهم وفجورهم قضاء وقدراً.

وسمع من بعض الملاحدة أنه يقول الذنب ذنب الذي خلق إبليس ليس ذنبي وهؤلاء يعدهم المسلمون ملاحدة ليسوا من المسلمين.

إن اعتقاد القضاء والقدر الصحيح تنجم عنه الأفعال الصحيحة وتتبعه الصفات الحميدة من بسط اليد في النفقة والصدقة والجرأة والاقدام وخلق الشجاعة ويبعث على اقتحام المهالك في سبيل الحق وحماية الدين والوطن

ويلهج أهله بقولهم: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ إن هذا الاعتقاد يطبع في النفوس الثبات على المكارم وتحمل المكاره ومقارعة الأهوال الشديدة بجأش ثابت ويحلي الأنفس بحلية الجود والسخاء لاعتقاده أن ما أنفقه فإن الله سيخلفه كما يحملها على التضحية بالروح في سبيل الحق والتخلي عن الدنيا وزينتها.

فالمسلم الذي يعتقد هذا الاعتقاد وأن نواصي الخلق بيد رب العباد يتصرف فيها كيف يشاء وإن لله ما أخذ ولله ما أعطى وأن الدنيا دار متاع يتمتع بها صاحبها برهة من الزمن ثم يزول عنها وأن الآخرة هي دار القرار وأن كل امرىء مجازى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فهذا الإعتقاد متى رسخ في قلب المؤمن فإنه لا يرهب الموت أبداً ولا يجزع منه إذا نزل به لاعتقاده أن له داراً هي أبقى وأرقى من دار الدنيا وعيشاً ونعيمًا هو أرغد وأنعم من عيش الدنيا فإنه لن يجزع من فراق الدنيا والحالة هذه.

ثم أن هذا الموت ليس بفناء أبداً لكنه انتقال من دار

إلى دار أخرى ليجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى فلا يجزع من الموت إلا الذي لم يقدم لآخرته خيراً ويقول ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا فهذا يجتمع عليه عند فراقه للدنيا سكرة الموت وحسرة الفوت وهول المطلع فيندم حيث لا ينفعه الندم ويقول يا ليتني قدمت لحياتي.

لقد اندفع المسلمون بصحة عقيدتهم في أوائل نشاطهم في القرن الأول والثاني والثالث بشجاعة باسلة وقلوب ثابتة وإيمان راسخ فاندفعوا إلى الممالك البعيدة في مشارق الأرض ومغاربها وبأيديهم القرآن يفتحون به ويسودون ويدعون الناس إلى العمل به فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي حتى استطاعوا أن يثلوا عروش كسرى وقيصر في أقصر مدة من الزمان وهم أرقى الأمم حضارة وقوة ونظاماً وعدداً وعدة.

فما كان خوضهم لهذه المعارك التي هي غاية في اقتحام المهالك إلا من أجل إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح وأنها لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها

فهذا الاعتقاد هو الذي ثبت أقدام المسلمين مع قلتهم وضعفهم أمام جيوش أعداءهم التي يغص بها الفضاء وتعج من كثافتها الأرض والسماء فكشفوهم بقوة الايمان ثم نشروا التوحيد والصلاح والسعادة في سائر البلدان وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التذكر بحديث المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفيه بيان القضاء والقدر على الوجه الصحيح

الحمد لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، وأشهد أن لا إله إلا الله بيده مواقيت الأعمار ومقادير الأمور، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى كل عمل مبرور. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا أو كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان. وأقول: إن هذا الحديث هو من جوامع الكلم ومهمات الحِكم، فهو بمثابة الموعظة الفصيحة والنصيحة الصحيحة التي حث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها أُمته وأحب منهم أن يتخلقوا بمدلوله الذي فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

بدأه بقوله: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لكون القوي يزيد على الضعيف بقوته والقوة في سبيل الحق والعدل مطلوبة شرعاً ومحبوبة طبعاً، ولهذا يستحبون الغزو مع الأمير القوي الفاجر ويفضلونه على الغزو مع الأمير المؤمن الضعيف، ويقولون: إن إيمان الضعيف لنفسه، وضعفه يضر الناس وأن فجور الأمير القوي لنفسه وقوته تنفع الناس، ولهذا كان من سيرة عمر بن الخطاب، أنه كان يفضل الأمير القوي ويقدمه في الولاية على الضعيف، كما ولي زياد بن أبيه وأمثاله، وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة، ويستحبون في القاضي أن يكون قوياً من غير عنف ليناً من غير ضعف حليمًا ذا أناة وفطنة، وقد قيل:

مـا أنت بالسبب الضعيف وإنمـا
نجـحُ الأمـور بقـوة الأسبـاب

فالقوة الممدوحة هنا شاملة للقوة في الدين والدنيا، لكونه يقوم في أعماله بجد وعزم ويأخذ بأسباب الحزم، وقد قيل:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى
فـما انقـادت الآمـال إلا لصـابـر

ولهذا قال: «إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

فهذه من أجمع الكلمات وأفصح العظات ترشد الإنسان إلى الحرص فيما ينفعه في أمر دينه ودنياه وبدنه. فمتى احتاج إلى علاج يزيل به ضرره ويدفع به مرضه، فإنه يبادر إلى الأخذ بأسبابه والدخول عليه من بابه، لأن دين الإسلام يجمع بين مصالـح الروح والجسـد وبين مصالح الدنيا والآخرة.

ففي الحديث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: ما نزل من داء إلا وله دواء عَلمَه مَنْ عَلمَه وجهَلَة

مَنْ جَهله. وقال: تداوو ولا تداوو بحرام فيستعمل الدواء الكريه المرّ خوفاً من الوقوع في الضر، كما قيل:

نـحـن في دار بـلـيـات
نـعـالـج آفـاتـاً بـآفـات

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الطعن في الأسباب قدح في الشرع والإعراض عن الأسباب نقص في العقل والله سبحانه يحب الكيس ـ أي الحزم ـ ويلوم على العجز. وفي الحديث: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس». فالعجز هو التواني والكسل في الأمور وعدم الأخذ بالثقة وعمل الحيطة في كل ما يقيه ويرقيه، ولهذا قيل:

الحـزم أبا العـزم أبـا الـظفـرات
والتـرك أبا الفـرك أبا الحسـرات

فقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: احرص على ما ينفعك يشمل هذا كله كما يشمل الحرص على أمر دينه من المحافظة على فرائض ربه التي ينتظم بها أمر حياته وآخرته، فإنها نعم العون على ما يزاوله من أمر الدنيا. وفي الدعاء المأثور: اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة

أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وقد مدح الله الذين يقولون: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

فلا ينبغي للإنسان أن يعجز عما يعود عليه نفعه من أمر دينه ودنياه، فإن العجز نتيجة الحرمان، وقد قيل:

دع التكاسل في الخيرات تطلبها
فما يسعد بالخيرات كسلان

ومن دعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

إن أضر ما ابتلي به الشخص هو العجز والكسل وأكثر الناس يجعلون عجزهم توكلاً وفجورهم قضاءً وقدراً.

فمتى صارحت الشخص ونصحته عن ترك الطاعات كالصلاة مثلاً، أو نهيته عن شيء من المنكرات كشرب المسكرات اعتذر إليك قائلاً: إنه أمر مكتوب عليَّ فهو كما قيل: عند ترك الطاعات قدري وعند ارتكاب المنكرات

جبري، نظير ما حكى الله عن المشركين، حيث قالوا: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين».

وقد قيل:

وعنـــد خـــلاف تحتـــج بالقضـــا
ظهيراً على الرحمـــن للجبر تزعـــم
تنزه منك النفس عن سوء فعلها
وتعتب أقـــدار الالـــه وتـــظلم
وتفهم من قول الرسول خلاف ما
أراد لأن لـلقلب مـنـك معجم

فالمحتج بالقدر حجته داحضة عند ربه باحتجاجه بالقدر، يريد أن يبطل الأمر والنهي اللذين عليهما مدار العبادات والأحكام وأمور الحلال والحرام والله سبحانه خلق الإنسان وركب فيه السمع والبصر والعقل ليتم بذلك استعداده لتناول منافعه واستعمالها في سبيل قوته ووقاية صحته وحفظ بُنيَته، وقد أرشد القرآن الحكيم إلى أخذ الحذر الذي من لوازمه عدم الركون أو الركود إلى القدر،

فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وقد ظاهر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين درعين وهو محفوظ من الله بكلائته وملائكته ربط الأسباب بالمسببات.

وكان من هدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعل التداوي في نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه وكلما شرعه رسول الله لأمته وأمر به فإنه من الدين الذي يجب اتباعه واستعماله ويدخل في عموم قوله: احرص على ما ينفعك ولا تعجز فالأنبياء والعلماء دينهم الأمر وعليه مدار العمل مع إيمانهم بالقضاء والقدر فهم يقدمون الأمر ويحاربون القدر بالقدر كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما بلغه أنه قد وقع الطاعون بالشام فامتنع عن دخول البلد من عزمه وعزم على الرجوع بأصحابه ولما قال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله يا عمر! قال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ويقولون: القدر لا يمنع العمل ولا يجب الإتكال عليه ولا الاحتجاج به إلا في حالة بذله للأسباب التي تقيه وترقيه وتحفظه، فمتى غلبه الأمر بعد ذلك فإنه لا يلوم نفسه على تقصيره أو تفريطه ولن يلومه الناس إذ قد ينزل بالشخص من البلايا والمحن

ما لا طاقة له به. ولهذا قال: ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، لأن هذا من اللوم المذموم فالعاقل يأخذ في أموره بالحذر والحزم وفعل أولي العزم، فمتى غلبه أمر لا يطيق دفعه ولا رفعه فعند ذلك يلتجىء إلى قوله: هذا قدر الله وما شاء فعل ليسلي بذلك نفسه.

على المرء أن يسعى ويبذل جهده
وليس عليه أن تتم المقاصد

أما إذا غلبه أمر بسبب ضعفه وعجزه وتقصيره بأخذ الحيطة ووسائل الوقاية والحفظ، فإنه ملام على عجزه ولا معنى لاحتجاجه بقضاء الله وقدره، فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولما قصر الصحابة يوم أحد في حمايتهم وأهملوا الشعب الذي أمرهم النبي بحفظه حتى دخلت عليهم خيل المشركين من جهة فقتلوا سبعين من الصحابة وكانوا يظنون أنهم لن يغلبوا من أجل أنهم جند الله والمجاهدون في سبيله مع نبيه، فأنزل الله ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾، أي بسبب تقصيركم بحفظ بيضتكم وحماية ثغركم.

وعـاجز الـرأي مضياع لفـرصتـه
حتى إذا فات أمر عـاتب القدرا

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : إن التوكيل إنما يكون مع الأخذ بالأسباب وإن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل فالتوكل محله القلب.

والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح والحركة والإنسان مأمور بالأسباب فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه».

(يسـأل بعضهم: هل يكـون الإنسـان مخيـراً أو مسيراً؟)

فالجواب: أن الإنسان مخير، أي فاعل مختار لعمله سواء كان خيراً أو شراً، فلا يقع فعل مقصود إلا من فاعل مختار، يقول الله: **﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾** وقال: **﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾** والله سبحانه يقول عند عرض صحائف الأعمال يوم القيامة: يا عبادي إنما هي أعمالكم

أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

فمن قال إن الإنسان مسيّر فإن هذه طريقة الجبرية القائلين: إن الإنسان لا يعدو أن يكون مجبوراً محضاً في جميع أفعاله وتصرفاته ويصفونه في تصرفه بالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح اضطراراً لا اختياراً.

وينشدون في ذلك:

ما حيلة العبد والأقدار جارية
عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

وأقول: إن هذا الشعر هو من الكذب المفترى على الله وعلى رسوله وعلى القضاء والقدر فما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون، يجادلونك بالباطل ليدحضوا به الحق فهو بعيد عن الحق والعدل فإن الله سبحانه لم يخلق الإنسان في الدنيا مكتوفاً عن العمل والسعي والأخذ بأسباب الحول والقوة وسائر ما يؤهله من السعادة والوصول إلى الغاية والنعيم في الدنيا وفي الآخرة، يقول

الله: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾، وقال: ﴿والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. فهذه هي الوسائل والأسباب التي تنجيه من عذاب الدنيا وعقاب الآخرة فيكون سعيداً في حياته سعيداً بعد وفاته.

أما إذا عطّل الإنسان هذه المنافع ولم يستعملها في سبيل ما خلقت له من عبادة ربه واستعمالها في مصالحه ومنافعه المباحة فيكون بمثابة الأعمى والأصم أو كالميت المكتوف، كما قال سبحانه: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾، وقال: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾، وحكى سبحانه عن أهل النار: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾.

فقد خلق الله الإنسان وخلق له السمع والبصر والأفئدة وخلق له أيضاً جميع ما يحتاج إليه في الدنيا من المطاعم والمشارب واللباس والأدوية.

فكل العقاقير التي يستعملُها الأطباء لعلاج الأمراض والوقاية من البلاء والوباء فهي بالحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه رحمة منه لعباده بإيصال نفعها إليهم وخص كل نوع منها بمرض يزاوله ويشفيه، فهي من قدر الله التي يقدر الله بها دفع البلاء ورفعه لكون الدواء أماناً للصحة وقت المهلة فالقائلون ألقاه في اليم مكتوفاً هم الجبرية الذين يحتجون بالقدر ويحاولون أن ينزهوا أنفسهم عن سوء ما فعلوا من المنكرات وترك الطاعات، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ من سورة النحل.

قال الخطابي ــ رحمه الله ــ: قد يحسب كثير ممن لا علم عندهم أن القضاء والقدر من الله عبارة عن إجبار العباد وقهرهم على ما قدره وقضاه وليس كذلك. وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم لأعمالهم والحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها لمباشرتهم تلك الأفعال وملابستهم إياها عن قصد وتعمد.

فالقدر بنسبته إلى الله عبارة عن سبق علم الله بالعباد وما هم فاعلون وليس علمه بها هو جبر منه لهم على فعلها[1] انتهى.

ويحيلون جورهم وفجورهم من تركهم الطاعات وارتكابهم المنكرات وشرب المسكرات إلى القضاء والقدر. وما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون فلو تعدى ظالم على أحد هؤلاء بضربه أو أخذ ماله أو انتهاك محارمه ثم احتج على سوء فعله بالقضاء والقدر فإنه لن يقبل منه هذا الاحتجاج لعلمه أنه احتجاج باطل حاول به التوصل إلى باطل ببديهة العقل فكيف يقبل على الله في ترك طاعاته وارتكاب محرماته[2].

---

(١) نقله عنه شيخ الإسلام في منهاج السنة ونقله الخازن في تفسيره على قوله سبحانه: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته عن القضاء والقدر: القدر نؤمن به ولا نحتج به فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبول لقبل من إبليس وغيره من العصاة ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق ولا قتل قاتل ولا أقيم حد على ذي جريمة ولا جوهد في سبيل الله ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر.

ولهذا يقول بعض العلماء أن يجاوب الجبرية بالصفع على الوجه ويقال هذا قضاء الله وقدره كما كنت تحتج به.

ولما جيء إلى عمر بن الخطاب بسارق قد سرق واعترف فقال له عمر: ما حملك على السرقة؟ فقال: حملني عليها قضاء الله وقدره. فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره، ثم أمر به فقطعت يده.

ومثله احتجاج بعضهم بقول الشاعر:

جــرى قلم القضــاء بمــا يكــون
فــسيّــان الـتحــرك والـسكــون

وهذا أيضاً يعد من أفسد الشعر يتمشى على عقيدة الجبر كما ذكرنا فيما سبق، وهذا القول وهذا الاعتقاد باطل بمقتضى النقل والعقل فهم يصورون القضاء والقدر في نفوسهم بمثابة الغل في العنق والقيد في الرجل، بحيث لا يتفصى أحد عنه ولا محيص للناس منه وهو مدفوع بقول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في هذا الحديث: «إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» والله سبحانه لم يخلق الخلق في الدنيا سدى مهملين مضيعين كالمكتوفين، بل خلقهم عاملين متحركين مختارين.

ومن بطأ به عمله لم يسرع به اتكاله على قضاء الله وقدره.

وحقيقة القدر: هو الإخبار عن سبق علم الله بالأشياء قبل كونها وأنه يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون لأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال عباده. فعلمه بالأشياء قبل وقوعها شيء والجبر منه عليها شيء آخر. فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» وهذه الكتابة هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل أن تقع وهذه الكتابة هي من عالم الغيب فلا ينبغي أن نشبه كتابته بكتابتنا ولا قلمه سبحانه الذي يكتب به بأقلامنا.

قال ابن عباس: إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه كن كتاباً فكان كتاباً فأنزل ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الايمان ـ ص ١٩٩.

وثبت أن الله يدفع القدر بالقدر وأن الله يمحو القدر بالقدر وسمع من دعاء عمر أنه يقول: اللهم إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقياً فامحنى واثبتني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبتْ. والله يقول: ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب﴾ مما يدل على أن هذا المحو قد أُزيل به كتاب سابق وفي حديث ثوبان أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وأن الصدقة لتدفع ميتة السوء[1]» وفي دعاء القنوت «وقنا واصرف عنا شر ما قضيت» فأثبت في هذا الحديث كون الدعاء يرد القدر والقضاء كما أن الصدقة تدفع ميتة السوء. وكذا قوله ولا يزيد في العمر إلا البر سواء حملناه على زيادة الأيام والليالي أو على البركة في العمر والكل واقع بقضاء الله وقدره. فالأنبياء والعلماء دينهم الأمر ويقدمونه على القدر. فقول الشاعر:

جــرى قلم القضــاء بمــا يكـون
فـسيــان الـتحــرك والـسـكــون

هو قول باطل قطعاً فلا يكون التحرك مثل السكون

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرطهما.

إذ أن مدار الشرع على الأمر والنهي وأصدق الأسماء حارث وهّمام. فالهمّام هو الذي يهم بقلبه: سأفعل كذا. والحارث هو الذي يسعى بيديه ورجليه إلى تحقيق آماله والسعي في أعماله، وقد قيل:

المسلم الحق يصلي فرضه
ويأخذ الفأس ويسقي أرضه
يجمع بين الشغل والعبادة
ليكفل الله له السعادة

وقد قلنا بأن المرض الذي يصاب به الشخص هو من قضاء الله وقدره وأن الدواء الذي يعالج به ليشفيه هو من قضاء الله وقدره أيضاً، فهم يشربون الدواء الكريه المر ليقيهم من الوقوع في الضر كما قيل:

وخذ مراً تصادف منه نفعاً
ولا تعدل عنه إلى حلو يضر
فإن المر حين يسر حلو
وإن الحلو حين يضر مر

وقد ثبت في الحديث بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة وفي مراسيل الحسن أن النبي ـ صلى

الله عليه وسلم ـ قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مـرضاكم بـالصدقـة واستدفعـوا أمواج البـلاء بالـدعاء والتضرع والدعاء يتعالج مع البلاء بين السماء والأرض فلا يعجز أحدكم من الدعاء ويقول: إن كان هذا الأمر مكتوباً لي فسوف يأتيني دعوت أو لم أدع، فإن هذه طريقة الملاحدة الذين يحاولون إبطال عبودية الدعاء وهـو مخ العبادة وقد قدر الله بعض الأشياء ولا يحصلها الإنسان إلا عن طريق الدعاء وإن لم يدع لم تحصل له ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه. فانتبهوا من غفلتكم وتوبوا من زللكم وحافظوا على فرائض ربكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

حرر في ربيع الأول سنة ١٤٠٠ هـ

فهرس

الايمان بالقضاء والقدر
على طريقة أهل السنة والأثر

وُجوبُ الإيمَان بكُلّ ما أخبَر بهِ القرآنُ مِنْ معْجزاتِ الأنبيَاء

عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلام

بسم الله الرحمن الرحيم

ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

الآيات والمعجزات تعم كل خارق للعادات وتسمى البراهين وهي كاسمها معجزة لعجز الناس عن معارضتها والاتيان بمثلها ـ فمعجزات الأنبياء هي آياتهم وبراهينهم الدالة على صدق نبوتهم. نصبها الله علامة على صدق رسله والاستدعاء إلى الايمان بهم وقبول دعوتهم وأنها من صنع الله القادر على كل شيء والفعال لما يريد ليست من صنع النبي ولا من كسبه. يقول الله: ﴿**وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله**﴾[1] فالعصا التي بيد نبي الله موسى

(١) سورة غافر: آية ٧٨.

هي عصاً مقطوعة من الشجر كعصا أحدنا في يده كما قال سبحانه: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى**﴾[1] وإنما صارت آية ومعجزة حين أمره ربه أن يلقيها ولهذا قال: ﴿**ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى**﴾[2] أي عصاً معتادة كحالتها السابقة.

وان المسلم متى آمن بالله القادر على كل شيء لم يعسر عليه التسليم والقبول لكل ما أخبر الله به من عجائب رسله ومعجزات خلقه كخلق آدم من تراب ثم قال له كن فكان فصار بشراً سوياً ثم خلق حواء من ضلع آدم ثم خلق المسيح من أم بلا أب وكذا سائر معجزات الأنبياء والأولياء كأهل الكهف الذين قص الله علينا خبرهم إذ لا بد للرسل من المعجزات التي تعزز دينهم وتستدعي تصديق دعوتهم فقد أتت الرسل بما تحار فيه العقول.

ولولا حكاية القرآن للمعجزات التي أيد الله بها

---

(١) سورة طه: آية ١٨.

(٢) سورة طه: آية ١٩ ــ ٢١.

موسى وعيسى وسليمان وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لكذب الناس بهم وبمعجزاتهم وبالكتب النازلة عليهم وانه لا يمكن إثبات آيات الأنبياء السابقين إلا بثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والايمان بالقرآن النازل عليه الذي أخبر الله فيه ﴿ان هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وانه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1] وقال: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[2] وقال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء﴾[3] وقال: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً. من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾[4].

إن من آيات الله ما يجري على حسب السنن المطردة في الخلق والتكوين ومنها ما يجري على خلاف السنن

---

(١) سورة النمل: آية ٧٦ ــ ٧٧.
(٢) سورة يوسف: آية ٣.
(٣) سورة يوسف: آية ١١١.
(٤) سورة طه: ٩٩ ــ ١٠٠.

المعروفة للبشر مما يدل على قدرة الباري وإن الله سبحانه خرق العادات في خلقه ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1] فقد أتت الرسل بما تحار فيه العقول.

إن الناس في المعجزات وفي الأمور المغيبات على قسمين:

أحدهما: الماديون الطبيعيون، الذين ينكرون ويكذبون بكل ما لم يدركوه بحواسهم فهم ينكرون وجود الرب ويكذبون بالملائكة ويكذبون بالبعث بعد الموت ويكذبون بالجنة والنار ويبادرون إلى إنكار ما سمعوه من الخوارق والمعجزات التي لم يصلوا إلى حقيقة العلم بها وفيهم أنزل الله ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين. وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾[2].

فهذا دأبهم في جميع نظرياتهم العلمية يكفرون بآيات

---

(١) سورة يس: آية ٨٢.

(٢) سورة يونس: آية ٣٩ــ٤١.

الله ويكفرون ويكذبون بمعجزات الأنبياء ولا يؤمنون بشيء منها فهؤلاء يعتبرون مرتدين عن دين الاسلام والمرتد شر من الكافر الأصلي وقد كثر هذا الصنف في الأمصار التي أفسد التفرنج تربية أهلها بما يسمون بالمثقفين.

عمي العيون عموا عن كل فائدة
لأنهم كفروا بالله تقليداً

أما الصنف الثاني: فهم المؤمنون الذين يصدقون بكل ما أخبر الله به تصديقاً جازماً ليس مشوباً بشك ولا ريب سواء أدركوا سر معرفة ذلك بعقولهم أو لم يدركوه. فهؤلاء هم المؤمنون حقاً الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وفيهم أنزل الله ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [1].

والمعجزة، إنما كانت آية ومعجزة لوقوعها من فعل

---

(١) سورة البقرة: آية ١ ــ ٥.

الله ليس للنبي ولا لغيره تصرف في صنعها أو كسبها. والحكمة في ذلك: أن مجرد قول الرسول لأمته ان الله أرسلني إليكم، بدون أن يأتي بآية تصدق ما يقول فإن ذلك مما يقتضي عدم تصديقه ولا الايمان به، لكنه متى أتى بآية ومعجزة ليست من صنعه ولا من كسبه ولا من الشيء المعتاد لغيره ويمتنع أن يأتي من يعارضه بمثلها دل هذا على صدقه وصحة نبوته. وسميت معجزة لكون الناس يعجزون عن معارضتها والاتيان بمثلها. وآيات الأنبياء هي علامات وبراهين من الله تتضمن إعلام الله لعباده بصدق رسله وما جاءوا به من الحق.

وقد سماه الله برهاناً في قوله: ﴿فذانك برهانان من ربك﴾ [1] يعني العصا واليد. ومن المعجزات اخبار القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام بقصص الأنبياء مع أممهم وبمعجزاتهم وخوارق العادات التي أيدهم الله بها وتكرار القرآن لأخبارهم تارة بطريق البسط وتارة بطريق الاختصار غير المخل.

ولأن اليهود والنصارى قد بدلوا الكتب المقدسة

---

(١) سورة القصص: آية ٣٢.

كالتوراة والانجيل وغيروها وأدخلوا فيها الشيء الكثير من الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله بقول الله: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**[1] وكانوا يجيزون لعلمائهم القسيسين بأن يغيروا من شريعة الرب ما يشاؤ ن ويشتهون لأنهم إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

ولما كان هذا القرآن هو المهيمن على الكتب السابقة وبمثابة المصحح المصفي لما ذكر فيها فيحق الحق ويبطل الباطل لهذا أعاد سبحانه وأبدى من ذكر قصص الأنبياء ومعجزاتهم ليكون هذا القرآن هو المرجع الوحيد لكل ما يذكر من قصصهم **﴿ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وانه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾**[2] **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا**

---

(١) سورة البقرة: آية ٧٩.

(٢) سورة النمل: آية ٧٦ــ٧٧.

نـذير فقـد جاءكم بشـير ونذيـر والله على كـل شيء قدير﴾[1] ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[2] لأن الله سبحانه أرسل نبيه محمداً إلى كافة الناس عربهم وعجمهم. يقول الله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[3] وقال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونـه مكتوبـاً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالـذين آمنوا بـه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.قل يا أيها الناس اني رسول الله إليكم جميعاً﴾[4]

(١) سورة المائدة: آية ١٩.
(٢) سورة المائدة: آية ١٥ ــ ١٦.
(٣) سورة سبأ: آية ٢٨.
(٤) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

فكل قصة نجدها تخالف القرآن يجب علينا أن نضرب بها عرض الجدار إذ ليس لنا حاجة في كل ما يخالف القرآن لعدم الثقة بصحته وكثرة دخول الكذب فيه.

ثم ان الاخبار بالآيات والمعجزات والمغيبات لا يجوز معارضتها بالعقل والرأي لأنها من صنع الله القادر على كل شيء ليس من صنع النبي ولا من كسبه فالاستدلال بها والتحدي بمثلها مع عجز الناس عن معارضتها دليل واضح على صحتها وصدق من جاء بها من ذلك معجزة القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام والذي هو الحجة البالغة العظمى على خلقه فهو معجزة الدهور وآية العصور وسفر السعادة ودستور العدالة وقانون الفضيلة الواقي عن الرذيلة مأدبة الله في أرضه عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فيه خبر الأمم السابقة مع أنبيائهم وما جرى منهم وما جرى عليهم **﴿ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.وانه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾** [1].

---

(١) سورة النمل: آية ٧٦ـ٧٧.

فيا لها من آيات حق لو اهتدى
بهن مـريـد الحق كن هـواديـا
ولكن عـلى تلك القلوب أكنـة
فليست وإن أصغت تجيب المناديا

وهذا القرآن المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة منها السور الطوال والقصار مع ما اشتمل عليه من البلاغة أنزله الله على هذا النبي العربي الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوبات كما قيل كفاك بالأمي معجزة يقول الله: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون.بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بأياتنا إلا الظالمون﴾**[1] وقد تحدى الله جميع الخلق على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا **﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[2] وهذا التحدي لجميع الخلق هو أعظم معجزة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته والقرآن النازل عليه. يقول

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٨ ــ ٤٩.
(٢) سورة الاسراء: آية ٨٨.

الله : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل.لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾[1] لا يقال ان هذا القرآن فاض على نفس محمد بدون أن يتكلم الله به وبدون أن ينزل به جبريل عليه فإن هذا صريح في التكذيب به وهي مقالة الوحيد العنيد القائل ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾[2] ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض انه كان غفوراً رحيمًا﴾[3] ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾[4] وللنبي صلى الله عليه وسلم معجزات غيره كنبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام القليل وغير ذلك. والمعجزة العظمى هي القرآن فهو معجزة الدهور وآيات العصور ولكل نبي معجزة تناسب حالة قومه وقد أيد الله موسى بمعجزات عديدة من أجل أنه أرسل إلى شعب عنيد، فرعون وهامان وقارون. يقول الله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بأياتنا وسلطان مبين.إلى فرعون وهامان

---

(١) سورة الحاقة: آية ٤٤ ــ ٤٦.

(٢) سورة المدثر: آية ٢٥.

(٣) سورة الفرقان: آية ٥ ــ ٦.

(٤) سورة النحل: آية ١٠٢.

وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾ وقال: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾[1] وهي اليد والعصا والحجر الذي يحمله ثم يضربه بالعصا فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم على قدر عدد الأسباط وكذلك انفلاق البحر حينما لحقهم فرعون وجنوده ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾[2] أي كالجبل الشامخ. ومثله معجزات نبي الله سليمان حيث سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب فكان يبسط البسط فيركب هو وجميع جنوده ومن معه فتقلهم الريح غدوها شهر ورواحها شهر.

ومثله معجزة نبي الله صالح حيث أخرج الله له ناقة من صخرة صماء لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾[3].

---

(١) سورة الاسراء: آية ١٠١.
(٢) سورة الشعراء: آية ٦١ — ٦٣.
(٣) سورة الأعراف: آية ٧٣.

ومثله نبي الله عيسى حيث يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويبين للناس ما يدخرون في بيوتهم.

وهذه المعجزات يصدق بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى لكونها مذكورة في كتبهم ومشهورة ومشهود بها فيما بينهم ولما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن اليهود يصومون يوم عاشوراء ويقولون إنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فيه فرعون وقومه قال: «نحن أحق وأولى بموسى صوموا يوماً قبله أو يوماً بعده خالفوا اليهود» فالعلم بهذه المعجزات والبراهين البينات يوجب علماً ضرورياً بأن الله جعلها آية لصدق أنبيائه ورسله الذين جاءوا بها من الله واستدلوا بها على قومهم وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة وأنه لا يمكن معارضتها ولا الاتيان بمثلها لكونها غير مصنوعة ولا من كسبهم ولا معتادة لغيرهم ولهذا كانوا يعارضون معجزة كل نبي بدعوى أنه ساحر كما قال تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون.أتواصوا به بل**

هم قوم طاغون﴾ [1] أي كان بعضهم يوصي بعضاً بهذه المقالة.

وإنما هي من الله عز وجل أعلم الله بها عباده بصدق رسله وكتبه ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ [2].

فخوارق السحرة والكهان المشعوذين هي من الأمور المعتادة المشتركة التي يفعلها الكثير من الناس وبالتحقيق فيها سرعان ما يتبين بطلانها.

إن ما ابتلى الناس به من الشرك والكفر وعبادة الأصنام إلا من أجل اعراضهم عن هداية الأنبياء وعدم الايمان بهم واعتمادهم على آرائهم وعقولهم.

إن المسلم متى آمن بالله القادر على كل شيء لم يعسر عليه التسليم بكل ما أخبر الله في كتابه من العجائب كعجيبة خلق آدم من تراب ثم خلق حواء من ضلع آدم ثم خلق المسيح من أم بلا أب إذ لا بد للرسل من

---

(١) سورة الذرايات: آية ٥٢ـ٥٣.
(٢) سورة غافر: آية ٧٨.

العجائب لتعزيز دينهم وتصديق دعوتهم ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد الله بها موسى وعيسى لكذب الناس بهما وبمعجزاتهما وبالكتب النازلة عليهما.

انه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بهذا القرآن النازل عليه الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين.

فإن من آيات الله ما يجري على سنته العامة المطردة في الخلق والتكوين ومنها ما يجري على خلاف السنن المعروفة للبشر مما يدل على قدرته على كل شيء وإنه فعال لما يريد وإن الله سبحانه خرق العادات فالماديون الملحدون المنكرون لوجود الخالق وقدرته التامة يبادرون بإنكار ما يسمعونه من الخوارق والمعجزات الذين لم يصلوا إلى حقيقة العلم بها أو يتكلفون التأويلات البعيدة لكل ما يرونه مخالفاً لسنته المعروفة. كما قال تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ (١) وهذا دأبهم في جميع

---

(١) سورة يونس: آية ٣٩.

نظرياتهم العلمية فهم يكفرون بآيات الله ويكذبون بها كلها ولا يؤمنون بشيء منها فتراهم يكذبون بكل ما غاب عن أبصارهم وبكل ما لم يحيطوا بعلمه فيكذبون بوجود الرب والملائكة وبالجنة والنار. فإفساد هؤلاء الفلاسفة الملاحدة للبشر في أمر دينهم ودنياهم أشد من إفساد النار لهشيم الحطب لزعمهم أن الأنبياء يكذبون على الناس ويحدثون الناس بما لا حقيقة له وأنهم يتصرفون بما يخالف السنن والنواميس ﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ [١] فكذبوا بالدين من أساسه وكذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله وهذا يعد من أشد أنواع الكفر بالله لأن ضرره يتعدى بما فيه من إضلال الناس باعتقاد هذا الباطل الذي يتبعه خروج الناس عن الدين ويبقون فوضى حيارى لا دين لهم.

فمتى جهر هؤلاء باعتقادهم في بلادهم فإنها لفتنة في الأرض ولفساد كبير فإن الجهر بالكفر والالحاد هو جرثومة الفساد وخراب البلاد وفساد أخلاق العباد.

أما وظائف الرسل فإنهم بشر اختصهم الله بالحق

---

(١) سورة ص: آية ٢٧.

لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الـدين بالقـول والعمل وبالتعليم والارشاد تبشيراً وإنذاراً وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ولم يؤتهم التصرف في خلقه بهداية أقرب الناس إليهم وأحبهم إليهم من والد وولد والناس أجمعين فوالد ابراهيم عاش كافراً ومات كافراً وولد نوح أول رسل الله إلى خلقه مات كافراً ولم يأذن الله لنوح بحمله معه في السفينة فكان من المغرقين وكان أبو لهب عم رسول الله وهو أشد أعدائه المؤذين له والصادين عن دينه وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد المؤمنون بقراءتها إلى يوم القيامة وعمه أبو طالب الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين وإعترف بصدق نبوته ولما قال له عند الاحتضار: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فامتنع ومات على ملة عبدالمطلب فأنزل الله أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ونهي عن أن يستغفـر له فقـال: **﴿ما كـان للنبي والذين آمنـوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾**[1] لأن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٣.

والمقصود أن معجزات الأنبياء كلها من الله لا من كسب الأنبياء ولا من تصرفهم كما نطق به القرآن الكريم في قوله: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾.

وإن الله سبحانه لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على قومهم بحيث يهتدي بها المستعد للهداية منهم وتحق بها كلمة العذاب على الجاحدين ﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [(١)] .

إن الثابت من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء كأهل الكهف وغيرهم فما كانت دلالته من النصوص القرآنية فإنها تعتبر قطعية لا مجال للرأي في إنكارها ولا صرفها بمجرد التحكم والتأويل عن المعنى المراد منها فقد أتت الرسل بمحارات العقول فالتكذيب بها يعتبر نقضاً لقواعد الشريعة المعتبرة القطعية ويعتبر ارتداداً عن الاسلام ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة يونس: آية ٩٦ــ٩٧.

(٢) سورة يونس: آية ٣٩.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنه يجب على كل مسلم التصديق بما أخبر الله ورسوله وأنه ليس موقوفاً على أن يقوم دليل عقلي على ذلك الأمر أو النهي أو الخبر فإن مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أن الله إذا أخبر في القرآن بشيء أو أن الرسول إذا أخبر بشيء فإنه يجب علينا التصديق به وإن لم نعلم بعقولنا حكمته.

ومن لم يقر بما جاء عن الله ورسوله حتى يعلم بعقله فقد أشبه الذين قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ ومن سلك هذا السبيل فليس بالحقيقة مؤمناً بالقرآن ولا بالرسول ولا متلقياً عنه الأخبار بالقبول ولا فرق عنده بين أن يخبر القرآن أو الرسول بشيء أو لا يخبر به فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما لم يخبر به ان علمه بعقله آمن به ولا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود القرآن والرسول وبين عدم وجودهما ويصير ما يذكر من القرآن والحديث والاجماع عديم الأثر عنده» والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

١٧ جمادي الأولى سنة ١٣٩٦

سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ
شقيقة القرآن

مقدمــة

نحمد الله سبحانه ونسأله التوفيق للإيمان والعمل بـالقرآن والتمسـك بسنة محمـد ـ عليه أفضـل الصلاة والسلام ـ .

إن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بسنة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما أن التكذيب بسنة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تستلزم التكـذيب بالقـرآن، إذ هما وحيان شقيقان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

قولوا: آمنا بالله وما جاء من الله على مراد الله، وآمنا برسول الله، وما جاء عن رسول الله على مراد الله.

فالإيمان بالقرآن يرجع إلى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان بسنة رسول الله يرجع إلى تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله هو طاعة الرسول فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه

نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ـــ ومن قال: أنا لا أؤمن إلا بالسنة العملية فهو ممن قال الله فيهم: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

فمن قال: أنا لا أؤمن ولا أعمل إلا بالقرآن، فهو بمثابة من يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله ولا أشهد أن محمداً رسول الله، فلا شك في بطلان شهادته، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، يقول الله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾، وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾، وكذلك من يعص الرسول فقد عصى الله.

ولما ادعى أناس محبة الله مع تخلفهم عن متابعة رسول الله أنزل الله عليهم آية المحنة لحقيقة المحبة، فقال سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.

تعص الإلــه وأنت تـزعم حبــه
هــذا لعمري في القيـاس بـديـع

لـو كان حبـك صــادقـاً لأطعـتـه

إن المـحـب لمـن يحـب مـطيـع

فمتى تخلت الأمـة عن متابعـة الرسـول وطاعتـه والإنقياد والتسليم لما جاء به مع دعواها لمحبته. فلا شك أن هذه دعوى كاذبة باطلة بالحس والوجدان والسنـة والقـرآن، ومن ادعى مـا ليس فيـه فضحتـه شــواهـد الامتحـان. يقول الله: **﴿فـلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**.

من قال قولاً غـير ذا قمنا عـلى

أقــوالــه بـــالـســبــر والمــيــزان

إن وافقت قول الرسـول وحكمه

فعـلى الرؤوس تشـال كالتيجـان

أو خـالفت هـذا رددنـاهـا عـلى

مـن قــالهــا قط مـن إنـســان

أو أشــكــلت تــوقــفــنــا ولم

نجــزم بــلا علم ولا بــرهــان

هـذا الـذي أدى إليـه علمنـا
وبـه نـديـن الله كـل أوان[1]

المؤلف

(١) من نونية العلامة ابن القيم.

سنة الرسول عليه الصلاة والسلام هي شقيقة القرآن

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ونعوذ بالله من فتن الضالين المضلين(١).

أما بعد، فقد قال الله سبحانه: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ من سورة آل عمران. وفي سورة الجمعة: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو

(١) هذه خطبة للإمام أحمد في رده على الجهمية.

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

فقد امتن الله سبحانه على عباده المؤمنين ببعثة هذا النبي الكريم **﴿عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**. فهدى الناس من الضلالة وبصرهم من الجهالة.

ثم أخبر سبحانه عن هذا الدين الذي فضل الله به الأميين من أصحاب محمد، أنه ليس مختصاً بهم، بل هو لهم ولكل من جاء بعدهم إلى يوم القيامة فقال: **﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾** ممن تبع رسول الله وتمسك بسنته، كما روى الترمذي من حديث أنس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «مثل أُمتي كمثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره». غير أن للصحابة الميزة السامية والمنزلة العالية بسبقهم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وملازمة صحبته، لا يدانيهم فيها غيرهم كما في الصحيحين من حديث عمران أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

«خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، لا أدري أذكر مرتين أو ثلاثاً».

وقال: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفس محمد بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه».

والأميون هم العرب، أطلقت عليهم هذه التسمية لعدم معرفتهم بالقراءة والكتابة نسبة إلى الأم، وقد سمّى الله نبيه محمداً أُمياً من أجل أنه لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فقال سبحانه: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون﴾.

فأمية الرسول هي معجزة من معجزات نُبوته، كما قيل: «كفاك بالعلم في الأمي معجزة»، وليست من سنته،

فقد حارب الأمية بنشر العلوم والكتابة بين أصحابه، ولأن أول سورة نزلت من القرآن هي سورة التعليم بالقلم.

وإنما خصه الله بالأمّيّة صيانة للوحي الذي جاء به حتى لا تتطرق إليه الأوهام الكاذبة والظنون الباطلة، فيقولون: كتبه من كتاب كذا. يقول الله: **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾**.

وهذه البعثة التي امتن الله بها على عباده المؤمنين هي بداية نزول الوحي عليه بغار حراء، حين أنزل الله عليه **﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق .خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم.الذي علم بالقلم.علم الإنسان ما لم يعلم﴾**.

فهذه البعثة هي أفضل من زمن المولد، لكونه ولد كما يولد الناس، وعاش أربعين سنة كسائر قريش، ولهذا قال في معرض الاحتجاج على قومه: **﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾**، ثم قال: **﴿يتلوا عليهم آياته﴾** أي القرآنية ويفسرها لهم ويسلونه عما أشكل عليهم منها.

قال ابن مسعود: كنا إذا تعلمنا عشر آيات لم

نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن والعمل بهن فهم يتلقون عنه العلم والعمل.

وكانت عامة مجالس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هي مجالس علم وتعليم، إما بتلاوة القرآن أو بما أتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، كما أمره الله في كتابه بأن يقص ويعظ ويذكر وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولهذا سمّاه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ثم قال: (ويزكيهم)، أي بالمحافظة على الفرائض والفضائل واجتناب منكرات الأخلاق والرذائل التي أعلاها الشرك فما دونه، لأن هذه الأعمال هي التي تزكي النفوس وتطهرها وتنشر في العالمين فخر ذكرها ﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى
فكن طالباً للنفس أعلى المراتب

ثم قال: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾، فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمهم السنة كما يعلمهم القرآن، كما قال

سبحانه في زوجات نبيّه: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾، فكان الصحابة يتعلمون من رسول الله القرآن والسنة معاً، ويتناوبون ملازمته لئلا يفوتهم شيء من علمه، وكان يقول: «إنما بعثت معلّمًا فمن حفظ حجّة على من لم يحفظ»، قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من سورة البقرة.

نشأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتيمًا أمياً:

هذا مع ما ثبت بالتواتر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نشأ يتيمًا في حجر أبي طالب، كأحد أولاده وليس في مكة مدارس ولا كتب حتى فاجأه الحق ونزل عليه الوحي والله يعلم حيث يجعل رسالته فكان ينزل عليه القرآن تدريجياً شيئاً بعد شيء حتى نزلت عليه سورة الأنعام بجملتها وهي جزء كامل فقام حافظاً لها ولسائر القرآن بدون أن ينسى شيئاً منه، لأن الله وعده بحفظه، فقال سبحانه: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ من سورة سبح، وفي البخاري عن ابن عباس قال: كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يحرك شفتيه بالقراءة خشية أن ينسى شيئاً

منه، فأنزل الله ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به ـ أي بحفظه ـ إن علينا جمعه وقرآنه ـ أي علينا أن نجمعه لك في صدرك وتقرأه ـ فإذا قرأناه ـ أي أوحيناه ـ فاتبع قرآنه ـ أي فاستمع له وانصت ـ ثم إن علينا بيانه**﴾ ـ أي أن تحفظه ولا تنسى شيئاً منه ـ فكان رسول الله بعد ذلك إذا نزل عليه جبريل أنصت وإذا أقلع عنه قرأه.

ثم أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن حقيقة هذا العلم الذي جاء به والذي أوحاه الله إليه، وأن الناس يتفاوتون في فهمه وحمله والعمل به، فقال فيما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري. قال: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها طائفة أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فسقوا وزرعوا، وكان منها طائفة أجادب، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما جئت به، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي جئت به».

وهذا مثل مطابق للواقع في أحوال الناس مع هذا الوحي والهدى النازل عليهم، وأن هذا التفاوت في حمل

العلم وفهمه واستنباطه هو أمر واقع بين الصحابة فمن بعدهم، وأن الصحابة يتفاوتون في حمل الحديث وحفظه واستنباطه، وقد وصفوا ابن عباس بالطائفة الطيبة التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فحمل أحاديث كثيرة ثم فرعها واستنبط منها الفقه في الأحكام وأمور الحلال والحرام، فكان آية في معرفة الاستنباط ومثله عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ .

ومشهور الطائفة الثانية التي أمسكت الماء فنفع الله به الناس فسقوا وزرعوا فشبهوها بأبي هريرة، فقد حمل علمًا كثيراً عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فصرف جهده إلى التحفظ على ما عنده خشية أن ينساه، فكان يدرس الحديث وقد أوصاه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن يوتر قبل أن ينام من أجله، لكنه لم يشتغل في استنباط ما عنده من العلم وله أشباه كأنس وأبي سعيد الخدري.

والمكثرون من الصحابة سبعة ولا يسمى مكثراً إلا إذا حمل عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألف حديث فما فوق وهم: ابن عباس وابن عمر وعائشة وأبو هريرة وأنس وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله، قال الشاعر:

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا
من الحديث عن المختار خير مضر
أبـو هـريـرة سعـد جـابـر أنس
صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

وأن هذه الأوصاف تنطبق على من بعدهم من أهل العلم وحملة الحديث وأن منهم العالم العامل بعلمه والذي يدعو إلى دين ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ثم يتوسعون في استنباط المعاني والأحكام بفقه وفهم. ومنهم عليم اللسان الذي يحمل العلم ولا يعمل به ولا يتوسعون في معرفة فقهه وأحكامه وغاية علمهم هو الجمود على ما يقوله أئمتهم وعلماء مذهبهم، وقد شبهوه بالمصباح الذي يضيء للناس ويحرق نفسه.

والطائفة الثانية: هي الجاهل الجافي الذي لا علم عنده ولا عمل، وقد شبهه بالأرض السبخة التي لا يزيدها المطر إلا ضرراً.

والحاصل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أصحابه السنة، كما يعلمهم القرآن، لكون السنة تفسر القرآن وتبينه، فأفضل التفاسير هو من يفسر القرآن

بالقرآن وبالسنة، كتفسير ابن جرير وابن كثير، **لأن الله** سبحانه قال: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾** من سورة النحل. وقال: **﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** من سورة النحل، قال عمر بن الخطاب: إنه سيأتي أناس يأخذونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

فالسنة هي التي تفسر القرآن كما قيل:

فهو المفسر للقرآن وإنما
نطق النبي لنا به عن ربّه

فالقرآن وحي مجمل والسنة وحي مفصّل ولا غنى لأحدهما عن الآخر، كما قيل:

وحي بتفصيل ووحي مجمل
تفسيره ذاك وحيٌ ثاني

وعن المقدام بن معدي كرب الكندي، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ــ عز وجل ــ فما وجدنا فيه من حلال استحللناه

وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه ألا وإن ما حرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل ما حرم الله» رواه الترمذي وابن ماجة.

وفي رواية «ألا وإني أُوتيت القرآن ومثله معه».

ومن حديث العرباض بن سارية أنه قال: وعظنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. ومنها قوله: «عليكم بسنتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن ماجة.

فصــل

في تفسير قوله تعالى:

﴿والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى﴾

يقول الله سبحانه: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى.إن هو إلا وحي يوحى﴾. قال ابن كثير في التفسير على قوله: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾: هذا هو المقسم عليه وهو الشهادة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال وهو الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي هو العالم بالحلق العادل عنه قصداً إلى غيره فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود وهي علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو صلاة الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد (وما ينطق عن الهوى) أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض (إن هو إلا وحي يوحى)،

أي إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه عن رسول الله أُريد حفظه فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله وإنه بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق».

وعن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه» وعنه أيضاً قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا أقول إلا حقاً». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً».. انتهى. من تفسير ابن كثير.

ثم إن الله سبحانه توعد نبيّه بأنه لو كذب عليه بادعاء شيء نزل عليه ولم ينزل عليه لأذاقه العذاب الأليم، فقال سبحانه: **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين﴾** لأنها أشد بطشاً، ثم **﴿لقطعنا منه**

الوتين﴾ وهـو نياط القلب ﴿فـما منكم من أحد عنـه حاجزين﴾ وحاشا نبيّه أن يكذب على ربه أو يكتم شيئاً من وحيه.

وقال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسـولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياتـه ويـزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾. قال: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾. قال غـير واحد من السلف: الحكمة هي السنة، لأن الذي كان يتلى في بيوت أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ سوى القرآن هو سنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وقـال حسان بن عـطية: كـان جبـريـل ـ عليـه السلام ـ ينزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسنة كما ينزل بالقرآن فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن.

ثم إن الله سبحانه اختار لحمل هذا الدين وتبليغه من هم أفضل الخلق على الإطلاق بعد نبيهم. أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علمًا وأقلها تكلفاً، وأصدقهم لهجة وأمانة، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، ثم وهبهم قوة الحفظ والاتقان، فيبلغون الناس ما سمعوه من نبيهم بدون زيادة ولا نقصان، كما روى ابن مسعود،

قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» رواه أبو داود والترمذي وابن حبان وصححه.

وعن جبير بن مطعم، قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخيف من منى يقول: «نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم» رواه أحمد وابن ماجة والطبراني.

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا جاءه أحد بحديث لم يسمعه كلفه إثباته بإحضار البينة التي تشهد له بصحة ما يسمعه وإلا أوجعه ضرباً من شدة حرصهم على حفظ السنة، فمن ذلك ما روى البخاري في صحيحه أن أبا موسى الأشعري واسمع عبدالله بن قيس استأذن على عمر فلم يؤذن له فانصرف ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس يستأذن؟ إئذنوا له فطلبوه

فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي وإني سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «إن استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف. فقال عمر: لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر. فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر عمر بذلك. فقال: ألهاني عنها الصفق بالأسواق.

وهذا نوع من تحفظهم بالسنة وحمايتها عن أن يزاد فيها أو ينقص منها، كما في البخاري أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ولهذا امتنع بعض الصحابة عن التحدث عن رسول الله خشية أن يزيد في الحديث حرفاً أو ينقص حرفاً، كما ثبت عن عبدالله بن الزبير أنه قال لأبيه الزبير: يا أبت مالك لا تحدث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يحدث عنه فلان وفلان. فقال: يا بني إني لم أفارق رسول الله في جاهلية ولا إسلام، ولكن أخشى أن

أزيد عليه في الحديث حرفاً أو أنقص حرفاً فأكون مستوجباً للوعيد في الكذب عليه. والذي جعل الزبير وأمثاله يتورعون عن الحديث عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاتهامهم حفظهم عن ضبط ما سمعوه من أجل ما رواه ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول: «نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه.

ثم إن الله سبحانه حفظ سنة نبيّه بما يحفظ به كتابه وذلك بعناية العلماء الحفّاظ والجهابذة النقّاد الذين سخرهم الله لبذل مهجهم وجهودهم وجهادهم في تنقيح أحاديث رسول الله وعنايتهم بتصحيحها وتمحيصها وبيان ضعيفها وصحيحها، فكانت هي صنعتهم مدة حياتهم حتى حذقوا فيها وصاروا كصاغة الذهب يعرفون الخالص من المشوب، لأن من تردد في علم شيء أعطي حكمته وكانوا يسألون عن الرجال قبل سؤالهم عن الحديث، ويقولون الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق.

فمتى ذكر المحدث بسوء الفهم أو النسيان أو عدم الثقة والإتقان تركوا الحديث عنه.

وعلى كل حال، فإنها لم تعن أُمّة من الأمم بحفظ حديثها ونصـوص أصول دينهـا أشد من اعتنـاء علماء المسلمين في سلسلة إسنادهم، حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن رسول رب العالمين، فمتى غلط المحدث فأخطأ فهمه أو زل قدمه قالوا له: إثبت وانظر ما تقول، فهذا السند الذي اعتنى به أئمة الحديث في أمانة التبليغ هو من خصائص هذه الأمّة لا يشاركهم فيه غيرهم من سائر الأمم كما قيل:

قـد خصت الأمّـة بـالإسـنـاد
وهـو مـن الـدين بـلا تـرداد

ثم إن السنة تدور على قول الرسول وفعل الرسول وإقرار الرسول. وقول الرسول مقدم على فعله لاحتمال أن يكون الفعل من خصائصه، إذ الرسول منزه عن الخطأ فيما يبلغه عن ربه.

فمن قال: لا أقبل أو لا أصدق إلا بفعل الرسول، فليس مؤمناً بالرسول ولا بما جاء به، والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقال؛ «كل أُمتي يدخلون الجنة إلا من أبى.

قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله تستلزم طاعة الرسول فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

يقول الله: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾**.

ثم ليعلم أن الله سبحانه قد نصب لعباده في الدنيا حكمًا عدلاً يقطع عن الناس النزاع ويعيد خلافهم إلى مواقع الاجماع وهو الكتاب والسنة.

يقول الله: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**. واتفق العلماء على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته فهما نظام شريعة الاسلام، وفيهما حل مشاكل سائر الناس من كل ما يتنازعون فيه من صغير

وكبير ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

لأن الله سبحانه لم يوجب الرد إليهما عند التنازع إلا وفيهما الكفاءة لحل جميع المشاكل.

ثم إن القرآن لا غناء له عن السنة التي تبيّنه وتفسره وتوضح ما أشكل منه. كما أنه لا غنى للسنة عن القرآن فهما وحيان شقيقان ولما نزل قوله سبحانه: ﴿من يعمل سوءًا يجز به﴾ فزع أصحاب رسول الله وقالوا: هلكنا، إن كان كل من عمل منا سوءً جزي به. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ألستم تحزنون، أليس يصيبكم اللأوى والمرض؟ قالوا: بلى. قال: فذاك» يشير بهذا إلى أن ما يصيب المسلم من الهم والحزن والمرض حتى الشوكة يشاكها فإنه يكفر بها من خطاياه، وأن هذا هو من الجزاء الذي وعدوا به. ومثله قوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ ففزع الصحابة من ذلك وقالوا: أينا لم يظلم نفسه. فقال لهم رسول الله: إنه الشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾. والذي يقول بالاكتفاء

بالقرآن عن السنة هو لا يعرف القرآن ولا يعرف السنة ويحاول الحط من السنة ليتوصل به إلى الحط من قدر القرآن، فإن من تجاهل سنة رسول الله وحاول الطعن فيها بالاكتفاء عنها، فإن من لوازم قوله الطعن في القرآن والتكذيب به.

حاجة البشر الضرورية إلى العلم بالسنة والعمل بأحكامها وحلالها وحرامها

وإذا أردت أن تعرف قدر منزلة السنة من القرآن ومن الشريعة، وأن الناس في حاجتهم إلى السنة وحكمها وتنظيمها وحلالها وحرامها هو بمثابة حاجتهم للقرآن.

فمن ذلك أن الله سبحانه فرض الصلاة على عباده المؤمنين كتاباً موقوتاً، أي مفروضة في الأوقات، وأمر سبحانه في كتابه بإقامة الصلاة وبالمحافظة على الصلاة وباستدامة فعل الصلاة، فمن أين نجد في القرآن أن صلاة الظهر أربع ركعات بعد زوال الشمس، وأن صلاة العصر أربع ركعات إذا صار ظل كل شيء مثله، وأن صلاة المغرب وتر النهار ثلاث ركعات بعد غروب الشمس إلى أن يغيب الشفق، وأن صلاة العشاء أربع ركعات بعد غيبوبة الشفق إلى نصف الليل، وأن صلاة الفجر ركعتان، وهل يوجد هذا التفصيل بهذا التفسير إلا في السنة

المطهرة، ومن ذلك أن الله سبحانه قال: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾، فكأن إباحة القصر مشروطة بخوف الفتنة، وقد قال يعلى بن أمية لعمر بن الخطاب: ما هذا القصر وقد أمنّا. فقال عمر: لقد عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك. فقال: «هو صدقة من الله تصدق بها عليكم فأقبلوا صدقته»[1]. فمن أين نجد هذه الصدقة من القرآن؟

ومثله الزكاة، فقد أوجبها الله حتى على من كان قبلنا، ومدح في كتابه من آتى الزكاة فيما يزيد على مائة آية.. لكنها مطلقة غير مفصلة لا بنصاب ولا بجنس، وإنما السنة بينت أنصبة الزكاة والجنس الزكوي الذي تجب فيه الزكاة، فبينت أن في النقود والتجارة ربع العشر مع بيان نصاب كل جنس من الذهب والفضة، وبينت أنصبة الحبوب والتمور، وأن ما سقي بكلفة ومؤنة ففيه نصف العشر، وما سقي بالسّيح أو المطر ففيه العشر، وفي

---

(١) رواه مسلم وأهل السنن.

الركاز الخمس ومثله التفصيل في زكاة الابل والغنم فمن أين نجد في القرآن مثل هذا التفصيل والبيان؟

ومثله البيع، فقد أحل الله البيع وحرّم الربا، وليس كل بيع حلالاً، فقد حرّمت السنة أشياء من البيوع كبيع الربا وبيع الخمر وبيع لحم الخنزير وبيع الغرر والغش والخداع وبيع الأصنام، ومنها الصور المجسمة إلى غير ذلك من الميتة وبيع البيوع المحرمة. وكما جاءت السنة أيضاً بإثبات خيار المجلس بين المتبايعين، كما في البخاري عن حكيم بن حزام أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما» وهذا يسمى خيار المجلس حتى لو سلم الثمن واستلم المشتري السلعة، فإن لكل واحد منهما الخيار ما داما في المجلس وإن طال... فمن أين نجد هذا التفصيل في القرآن متى عدلنا عن السنة أو استغنينا عنها بالقرآن.

ثم إن الله حرّم أكل الميتة، فقال سبحانه: ﴿حرّمت عليكم الميتة والدم﴾ فجاءت السنة المطهرة فأباحت للناس ميتتين ودمين وهما السمك والجراد والطحال والكبد..

ومن ذلك أن الله سبحانه حرّم الخمر في كتابه المبين على الاطلاق بدون تفصيل، فجاءت السنة فحرّمت كل ما أسكر كثيره فقليله حرام وهو خمر من أي شيء كان.

وكل مسكر خمر وكل خمر حرام من أي شيء كان حتى لو وجد عين ماء من شرب منها سكر لحكمنا بكونها خمراً اعتباراً بالميزان الشرعي.

ومن ذلك أن الله سبحانه أوجب قطع يد السارق، بقوله سبحانه: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾. فجاءت السنة الثابتة من حديث رافع بن خديج قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «لا قطع في ثمر ولا كثر» رواه أحمد والأربعة وصححه الترمذي وابن حبان. فأثبتت السنة العفو عن سارق الثمر والكثر وهو جمار النخل. وكما جاءت السنة أيضاً بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أدرأوا الحدود بالشبهات» وبقوله: «إدفعوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم» فبالله قل لي: من أين نجد هذه الحكم والأحكام من كتاب الله وفي أي سورة نجدها لولا أن السنة هي التي تفصل القرآن وتفسره وتعبر عنه وتبين ما سكت عنه.

ومن ذلك أن الله سبحانه أباح للناس الزينة فقال سبحانه: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ فجاءت السنة فحرّمت الذهب قليله وكثيره على الرجال، كما في الحديث: أحلّ الذهب والحرير لأناث أُمتي وحرّم على ذكورهم».

ولما رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم ذهب بيد رجل فطرحه بالأرض غضباً على صاحبه، فقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة نار فيضعها في أصبعه»، فلما انصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيل لصاحب الخاتم: خذ خاتمك وانتفع به. فقال: لا والله لا أرفعه عن الأرض وقد طرحه رسول الله فيها. من شدة استجابته للحق.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير، فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به﴾. فجاءت السنة فحرّمت كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، أي الذي يصيد بنابه، كالكلب والسبع والذي يصيد بمخلبه كالصقر، وكما حرّمت السنة أكل الحمر الأهلية ولن توجد هذه كلها في القرآن.

وفي القـرآن المنزّل: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾ فجاءت السنة فمنعت الارث بين الوالدين والأولاد مع اختلاف الدين، فقال: (لا يرثُ الكافر المسلم ولا المسلم الكافر). وكما أن القاتل لا يرث من قتله ثم إن الله سبحانه قال في كتابه من بعد قسمه للمواريث فقال: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾.

فجاءت السنة فحكمت ببداءة الدين قبل الوصية، كما حكمت بأن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، وهذه إنما توجد في السنة لا في القرآن، ثم إن رجلاً أعتق ستة مماليك له عند موته ولم يكن له مال غيرهم، فجزأهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثلاثاً، فأعتق اثنين وأرق أربعة، وقال له قولاً شديداً، فدل دلالة قطعية على أن المريض محجور عليه فيما زاد على الثلث، فمن أين نجد هدا في القرآن لو لم نرجع في تفصيلها إلى السنة ولولا البسنة لاستحللنا أشياء مما حرّم الله علينا.

ولهذا قال بعض السلف: إن السنة تقضي على القرآن وتعبر عنه وتبين ما سكت عنه، ومن ذلك أن الله سبحانه قال: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً

ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ فأطلق هذه الدية ولم يقيّدها بجنس ولا صفة ولا عدد، فجاءت السنة ففصّلتها وفسرتها بالإبل وبالذهب والفضة.

ومثله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر. رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس، وهذا الحديث يشتمل على قاعدة عظيمة من قواعد علم الفرائض وقسم التركات. فهو مع اختصار لفظة وجزالة معناه قد جمع علم الفرائض مما اختص رسول الله ببيانه من كل ما أجمل أو أبهم في القرآن مما لا يستطيع أحد إحاطة العلم بمدلوله عن طريق القرآن وحده.

القواعد الأصولية المستفادة عن طريق السنة النبوية

إن من الغباوة والحمق دعوى الاكتفاء بالقرآن عن السنة ومحاولة عزل السنة القولية عن العمل، ومن المعلوم من دين الاسلام ومن إجماع علماء السلف الكرام أن السنة هي شقيقة القرآن، فهي الوحي الثاني لقوله سبحانه: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾.

فالسنة تُفسِّرُ وتفصّل ما أجمله وتأتي بما سكت عنه، يقول الله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ من سورة النحل. فمن حاول أن يتصدى لتفسير القرآن أو تأليف أي كتاب من العلوم الشرعية مع عزمه على عزل السنة النبوية وعدم احتياجه لها، فهذا بلا شك أخرق وأحمق، أشبه من يقتحم لجة البحر وليس بماهر في السباحة، فهذا مما لا شك في غرقه،

لأن بعض الناس لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذاك مائق فاتركوه.

تصــدر للتــأليف كــل مهــوس
جهــول يسمى بــالفقيــه المــدرس
وحق لأهــل العلم أن يتـمثـلوا
ببيت قـديم شاع في كـل مجلس
لقد هزلت حتى بدى من هزالها
كُلاها وحتى استامها كـلّ مفلس

وسنورد من القواعد الأصولية ما عسى أن لا تجدها إلا في السنة النبوية.

القواعد الأصولية الواصلة إلى الناس عن طريق السنة النبوية

إن أكثر القواعد والعقائد والأصول إنما استفادها العلماء والحكماء عن طريق السنة النبوية، حتى قيل: إن حاجة الناس للعلم بالسنة والعمل بها أشد من القرآن، مع العلم أن القرآن هو الأصل، فمن ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىء ما نوى» وهذا الحديث رواه البخاري عن عمر. وقد اعتمده الفقهاء من إحدى القواعد التي عليها مدار صحة الأعمال وفسادها وهي خمس قواعد، أحدها الضرر يزال، والثانية العادة محكّمة، والثالثة المشقة تجلب التيسير، والرابعة الشك لا يرفع اليقين، والخامسة «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى». إذ مدار الأعمال الصالحة على إخلاص العمل وصوابه، ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن النبي ـ صلى

الله عليه وسلم ـ قال: «بُنِيَ الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج».

فهذه الأركان التي بني عليها الاسلام ذكرت مفرقة في القرآن بدون ذكر البناء ومن غير السهل حفظ العوام لها مفرقة. وقد سبكها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بانسجام حسن لتكون عقيدة للعلماء والعوام وللخاص والعام، ولن توجد بهذه الصفة في غير السنة حتى صارت عقيدة وطريقة لسائر الموحدين السلفيين يحفظها العوام فضلاً عن العلماء الأعلام. ومنها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة. وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» فهذا الحديث مبني على الاخلاص والمتابعة لكون العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً على نهج السنة، فإنه مردود على فاعله.

إذ أن من واجب الإيمان برسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، إذ

لا مدخل للعقول والآراء في عبادة الله ــ عز وجل ــ لكون العبادة هي ما أتى به الشارع حكمًا من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي، وهي مبنية على التوقيف والاتباع لا على الاستحسان والابتداع. يقول الله سبحانه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: إنه يجب على كل مسلم التصديق بما أخبر الله به ورسوله، وأنه ليس موقوفاً على أن يقول دليل عقلي على ذلك الأمر أو النهي بعينه، فإن مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أن الرسول إذا أخبر بشيء وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم بعقولنا حكمته، ومن لم يقِّر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قالوا: ﴿لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾ ومن سلك هذا السبيل فليس في الحقيقة مؤمناً بالرسول ولا متلقياً عنه الأخبار بالقبول ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به.

فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به، بل يتأوله أو يفوضه، وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به، فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول

وإخباره وبين عدم وجود الرسول وإخباره. وصار ما يذكر من القرآن والحديث والإجماع عديم الأثر عنده.. انتهى.

ومنها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث بريرة: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط قضاء الله أحق ودين الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق» رواه البخاري من حديث عائشة.

ومنها ما رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعلّي هل عندكم شيء من الوحي غير القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يعطيه الله تعالى رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر. رواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث علّي «بلفظ المؤمنون تتكفأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، وصححه الحاكم. فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أن الإسلام يساوي بين الناس في دمائهم ودياتهم، فيجعل دية المقعد الأعمى والأصم بمثابة دية الشاب السوي القوي إذ النفس بالنفس والجروح قصاص. ثم قال: ويسعى بذمتهم أدناهم، فأيما رجل آجر رجلًا أو رجالاً في ذمته، فحرام على المسلمين أن

يخفروا ذمته حتى ولو كان المجير امرأة، كما قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ «قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء».

وأما قوله: وهم يد على من سواهم، فمعناه: أنه متى نبغ عدو على طائفة أو أهل بلد من المسلمين، فإن الواجب أن يكونوا كاليد الواحدة في دحر نحره ودفع شره، إذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض ولو ذهبنا نتبع النصوص والأصول المستفادة عن طريق السنة لخرج بنا الاستطراد عن موضوع ما عزمنا عليه من الاختصار والاقتصار.

وحتى الحيوان فقد جاءت السنة بمشروعية رحمته والرفق به والاحسان إليه. ففي الحديث أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «إن الله كتب الاحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» رواه مسلم من حديث عن أبي يعلى شداد بن أوس. وفي البخاري أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «بينا كلب يدور على بئر يلهث عطشاً إذ نزعت له امرأة بغي موقها فسقته فشكر الله لها ذلك فغفر لها. فقالوا: يا رسول الله أو لنا في

البهائم أجر؟ فقال: نعم. إن في كل كبد رطبة لأجراً. وقال: دخلت النار امرأة في هرّة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من حشائش الأرض حتى ماتت، ونهى أن تتخذ ذات روح غرضاً ـ أي هدفاً ـ للرمي، كما لعن من وسم دابة في وجهها.

فهذه النصوص تستفاد من السنة، ولو ذهبنا نتتبع أمثال ذلك لخرج بنا عن موضوع الاختصار والاقتصار.

والحاصل أن من أدعى الاكتفاء بالقرآن عن السنة فإنه ليس مؤمناً بالقرآن ولا بالسنة، لكون التكذيب بأحدهما مستلزماً للتكذيب بالآخر، فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ من سورة النساء.

السنة التي ندعو إلى الايمان بها والحكم بموجبها

إن من الواجب على كل مسلم متابعة الرسول في المعقول والمنقول، لأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد بيّن للناس بطريق التلقين والتعليم جميع ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم. قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسولاً منهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، يتلو عليهم آياته القرآنية ويلقنهم حفظها، ويسألونه عما أشكل عليهم منها. قال ابن مسعود: كنا إذا تعلمنا عشر آيات لم نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن والعمل بهن، ثم قال: (ويزكيكم)، أي بالمحافظة على الفرائض والفضائل، واجتناب منكرات الأخلاق والرذائل، لأن هذه

الأعمال هي التي تزكي النفوس وتشرفها وتنشر في العالمين فخرها، وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

ثم قال: ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾، فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أصحابه الكتاب والسنة، ويقول: «إنما بعثت معلمًا». ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من كل ما يحتاجونه إليه في أمر دينهم ودنياهم.

فالرسول بينّ للناس جميع الدين بالكتاب والسنة. وأن الله لم يرسل رسولاً إلا ليطاع بإذن الله، يقول الله: ﴿من يطع الرسول فقط أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله هي طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، فمن واجب المؤمن أن يعرف حقيقة ما أخبر به رسول الله، وأنه الحق لكونه لا يقول إلا حقاً. وأن من عصى الرسول فقد عصى الله.

فمن واجب أهل العلم والإيمان التسليم والقبول لما جاء به الرسول من صحيح المنقول، إذ الحكمة في بعث

الرسل هو طاعتهم فيما أمروا واجتناب ما عنه نهوا وزجروا، وسواء أدركوا معرفة ذلك بعقولهم أو لم يدركوه.

ثم إن السنة التي ندعو إلى الإيمان بها والعمل بموجبها. هي السنة الثابتة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنقل الثقات الأثبات عند أهل المعرفة والعلم بالحديث، الذين يميزون بين الصحيح والضعيف، فهم يعرفون رجال الحديث وصحته كما يعرفون أبناءهم.

ولسنا نعني ما في بطون الكتب من التفاسير وكتب الفقه والترغيب والترهيب ونحوها، فإن في هذه الكتب الشيء الكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة مما يتبرأ منها الإسلام، وليست من كلام محمد رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد تصدى لهذه الأحاديث علماء نقاد فأخرجوها عن حيز الاعتبار بما يسمى كتب الموضوعات.

فمن واجب أهل العلم بالله أن لا يتجرأوا على الاستشهاد والاحتجاج بالحديث إلا بعد التأكد من ثبوته وصحته، إذ أن كتب الفقه المتداولة بأيدي الناس من شتى

المذاهب مشحونة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، ينقلها بعضهم عن بعض.

وعلى كل حال، فإن كل من تصدى للقضاء أو التفسير أو التأليف في الفقه أو في غيره من سائر العلوم الشرعية، فإنه لن يستغني عن الاستعانة بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القولية والفعلية، إذ هي من الأمر الضروري ولن يتم أمره بدونها، إذ هي بمثابة المصابيح التي يهتدى بها.

وكلما كان الشخص عالماً بالسنة ومتوسعاً في حفظها وفهمها، فإنه سيكون أقدر وأجدر على معرفة تفسير القرآن واستنباط المعاني والأحكام ممن هو جاهل بها ،أفمن يعلم كمن لا يعلم﴿ أفلا تذكرون﴾.

إن أكثر ما أبعد ضلال المسلمين من علماء الكلام قديماً وحديثاً عن الدين، هو بعدهم عن السنة وضعف نصيبهم منها، فحكموا عقولهم وآراءهم في القول على الله وتحريف كلام الله وصفاته حتى وصفوا الرب بالجمادات، فأنكروا كلام الله وأنكروا صفاته بطريق تحريفها وصرفها عن المعنى المراد منها. فقالوا: القرآن مخلوق والله

لا يتكلم. وقالوا: إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر ووجه الله عظمته ويده قدرته ونزوله نزول أمره والاستواء على العرش بالاستيلاء، وأنكروا رؤيته في الآخرة. وغير ذلك من تحريف الكلم إلى غير المعنى المراد منه.

وهذه التحريفات إنما حدثت بعد انقضاء عصر الصحابة الذين تلقوا معاني التنزيل من الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ فكانوا أعلم الناس بالتأويل ولم يقع منهم تحريف للصفات بصرفها عن غير المعنى المراد بها، وبعد انقضاء عصر التابعين انقسم العلماء فريقين: فريق يقال لهم علماء السنة، وفريق يقال لهم علماء الكلام. فأهل السنة وقفوا مع القرآن، فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه من الصفات بدون تشبيه ولا تعطيل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وقالوا: إن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أن لله ذاتاً لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين. وقد قال في شرح العقيدة الطحاوية[1]:

(١) ص ٣١٢ من الطبعة الرابعة.

كيف يتكلم في أُصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان وعلماء الكلام ومن زعم أنه يأخذه من كتاب الله وهو لا يتلقى تفسيره من كتاب الله ولا من أحاديث رسول الله، ولا ينظر فيما قاله الصحابة فإنه يعتبر بأنه خاطىء خارج عن حدود الحق. فإن المنقول إلينا من السنة عن الثقات الذين تخيرهم النقاد: أنهم لم ينقلوا إلينا نظم القرآن وحده فقط، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل كانوا يتعلمونه بمعانيه، وكل من لا يسلك سبيلهم في العلم والتعلم والعمل، فإنما يتكلم برأيه وهواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله.

والحاصل: أن من يتكلم برأيه وبما يظنه من دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب والسنة، فإنه مأثوم وإن أصاب، وإن أخذه من الكتاب والسنة، فإنه مأجور وإن أخطأ... انتهى.

فالواجب على المسلمين جميعاً وجوب الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله وإقامة التشريع عليهما، فإن هذا هو الضمان لهم والكفيل بعلاج عللهم وإصلاح مجتمعهم ﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء﴾ وحتى لا يرجعوا

القهقرى ضلالاً كما حذرهم رسول الله عن ذلك بقوله: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض». رواه مالك بلاغاً والحاكم موصولاً بإسناد حسن.

ضلال القائلين بالاستغناء بالقرآن عن السنة

إنه من المعلوم بطريق العقل والنقل أنـه لا غنى للناس عن ألسنة أبداً، إذ هي المصدر الثاني في التشريع، وأن دعوة الناس إلى الاستغناء بالقرآن عن السنة هي دعوة إلحادية حاولوا بها الحط من شطر الدين وتفسير ما أجمل أو أُبهم في القرآن، ليتمكنوا بذلك من الحط من الشطر الثاني ـ أي القرآن الحكيم ـ حتى يعيشوا في الدنيا عيشة البهائم، ليس عليهم أمر ولا نهي،ولا صلاة ولا صيام،ولا حلال ولا حرام، **﴿والذين كفروا يتمتعون ويـأكلون كما تـأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾**.

وقد قال عمر بن عبدالعزيز أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سنّ سنناً الأخذُ بها اعتصام بكتاب الله وقوة في دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر يخالفها، من اهتدى بها فهو المهتدي ومن

استنصر بها فهو المنصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.

فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يبين للناس ما نزل إليهم من القرآن بمقتضى أقواله وأفعاله وتقريراته، ويقول: «ما تركت من شيء يقرّبكم من الجنة إلا أخبرتكم به، ولا شيء يباعدكم عن النار إلا حذرتكم عنه».

وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة، فقال له: إنك امرؤ أحمق، أتجد في القرآن أن الظهر أربع ركعات لا يجهر فيها بالقراءة حتى عد عليه الصلاة والزكاة ونحوها، ثم قال: كتاب الله أبهم أشياء كثيرة من نوع ذلك، وأن السنة تفسر ذلك.

ولقد سئل أبوبكر عن ميراث جدّة أُم الأب مع الأب، فقال مالك في كتاب الله من شيء، ولكني أسأل الناس، فسأل الصحابة فشهد المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أعطاها السدس فأمضاه أبوبكر. وأراد عمر أن يفاوت بين الأصابع في الدية حتى شهد عنده بعض الصحابة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: الخنصر والإبهام سواء كل أصبع عشر من الإبل فأمضاها.

الله على بعض البوادي، فكتب إلى عمر يخبره أن رسول الله ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها.

ولم يكن ليعلم حكم الشرع في أخذ الجزية من المجوس حتى أخبره عبدالرحمن بن عوف بقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يكن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يعلم أن المتوفي عنها زوجها تعتد في بيت زوجها أطول الأجلين، حتى أخبرته الرُّبيع بنت مالك أُخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي عنها زوجها، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرها أن تمكث في بيت زوجها حتى يبلغ الكتاب أجله فأخذ بها عثمان وأمضاها.

إلى غير ذلك من النصوص التي جاءت بها السنة ولم تكن مذكورة في القرآن، فلما أُخبروا بها سمعوا وانقادوا وقالوا: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا﴾ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً.

وحتى خبر الواحد العدل يفيد العلم اليقيني بأدلة كثيرة عند جماهير العلماء من الأولين والآخرين، وهو ما لا يرويه إلا الواحد العدل ولم يتواتر لفظه ولا معناه،

ولكن تلقته الأمّة بالقبول عملاً به أو تصديقاً له، كخبر عمر بن الخطاب إنما الأعمال بالنيات، وكخبر ابن عمر، نهى رسول الله عن بيع الولاء وهبته، وقد أنهى العلامة ابن القيم صحة قبول خبر الواحد إلى عشرين وجهاً[1]، كلها تثبت صحة قبول خبر الواحد متى توفرت أسباب الصحة فيه كغيره.

(١) في صفحة ٣٩٤، ج ٢، من الصواعق المرسلة.

الضرورة الملحة
في حاجة الناس إلى العمل بالسنة

إنه مما لا شك فيه أن السنة علم واسع يتعلق بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم ومعادهم وجهادهم وبيعهم وشرائهم وما يلتحق بذلك من الإيجار والعارية والهبة والوقف والصلح والنكاح والطلاق. فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتحدث عن إصلاح المجتمع وعن عوامل الهدم التي تعمل عملها على تقويض دعائمه، وعن عوامل البناء التي تعمل على إقامته على قواعده السليمة، ويتحدث عن النظم التي ينبغي أن تسود المجتمع الإنساني، وعن الأوضاع التي يجب أن تستقيم وعن الأعمال التي يجب أن تجتنب.

وللسنة جو لغوي، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أُوتي جوامع الكلم، وكلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبلغ الكرم البشري، ونشر السنة عامل من أهم

العوامل على ترقية اللغة التي يكتب بها الكُتّاب وعلى وضع الناشئين والمثقفين في وضع أدبي ممتاز، من حيث اللغة ومن حيث الأسلوب، كقوله: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

وللسنة أدبها الواسع في تهذيب النفس وتربية الروح وسمو الأخلاق إلى درجة لا تجارى، يقول الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ فعلمنا أن الحياة الحقيقية هي في اتباع ما جاء به الرسول، فأهلها هم أحياء وإن كانوا في القبور، كما أن الإعراض عما جاء به الرسول هو الموت وإن كان صاحبه يمشي على الأرض، كما قيل:

أخ العلم حيّ خالد بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وإن كان على الثرى
يعد من الأحياء وهو عديم

ومن أجل ذلك كله كان نشر السنة واجباً دينياً وعملاً اجتماعياً وواجباً وطنياً حتمياً وإصلاحاً أخلاقياً. وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة في عصر تحاول فيه

الرذيلة أن تطغى على الفضيلة، ويحاول الانحلال الخلقي أن يعم كل أُسرة وفي كل بيت، ويحاول الفساد أن يأتي على مقدسات الأمّة ومقوماتها من كل عرض وشرف وكرامة.

لقد أحب الله للإنسانية مثالاً أخلاقياً كريماً رسمه سبحانه في القرآن الكريم قولاً، فكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الإلهي، وكان بذلك الإنسان الكامل. يقول الله في حق نبيه **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**.

لقد كان رسول الله المثل الأعلى في الرحمة والمثل الأعلى في الصبر، والمجاهد الأكبر والمثل الأعلى في الصدق وفي الإخلاص وفي الوفاء وفي البر وفي الكرم. ولا ريب في أن الأمة الإسلامية حينما تقتدي بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما تقتدي بأعظم البشر رجولة وإنسانية. وتقتدي بمن أحب الله سبحانه أن يقتدى به **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾**.

وإن العمل على نشر السنة إنما هو توجيه للاقتداء بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سمى الله السنة في

كتابه باسم الحكمة لقوله سبحانه ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ لكونها تفسر بإصابة الحق في القول والعمل.
وأن الدعوة إلى ترك السنة اكتفاء بالقرآن الكريم دعوى باطلة، وقد حذرنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من هذا الضلال. فروى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته فيحدث بحديثي فيقول بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه. وإنما حرّم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما حرم الله».

وروى أبو داود عن عبيدالله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «لألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما

وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله».

وعن حسان بن عطية أنه قال: كان جبريل ــ عليه السلام ــ ينزل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن. وعن مكحول قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه» أخرجهما أبو داود في مراسيله.

وقيل لمطرّف بن عبدالله بن الشّخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال: والله ما نبغي بالقرآن بدلاً ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن، يعني النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإن سنته شرح للقرآن.

وقال عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، فقالت: يا أبا عبدالرحمن، بلغني أنك لعنت كيت وكيت. فقال: ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو في كتاب الله. فقالت المرأة: لقد قرأت

ما بين لوحي المصحف فما وجدته فقال: لئن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾. قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

١٩ جمادي الآخر ١٣٩٩ هـ

فهرس

سنة الرسول
شقيقة القرآن

فهرس إجمالي